مفهوم البربرية في الكتابات الكَنَسّية اللاتينية بين التقاليد الكلاسيكية ومبادئ المسيحية (القرنان ٤– ٥ م)

د. سامر سيد محمد حسين قنديل

مدرس تاريخ العصور الوسطى الأوربية – قسم التاريخ –كلية الآداب – جامعة عين شمس

samer.sayed@art.asu.edu.eg

المستخلص (باللغة العربية)

تحاول هذه الدراسة الإجابة على سؤال فحواه؛ هل ظل كُتاب الكنيسة وآباؤها أسيرين لاستخدام المفاهيم والمصطلحات الكلاسيكية – ومن بينها مفهوم "البربرية" – بنفس المضامين التي كان يستخدمها القدماء، أم حدثت قطيعة معرفية مع القديم مع دخول القيم المسيحية والإرث العبراني كمكون ثقافي وقيمي رئيس في فكر هؤلاء الكتاب؟. فقد لاحظ بعض الباحثين أن الدلالات الازدرائية لمفهوم "البربرية" قد انتقلت بنفس صياغاتها في العالم الكلاسيكي اليوناني- الروماني إلى عالم العصور الوسطى الأوربية، وذلك برغم تغير الظروف والسياقات التاريخية، أي أن كُتاب العصور الوسطى استخدموا نفس المسمى الذي استخدمه الإغريق والرومان للإشارة إلى الشعوب الجرمانية، التي أصبحت أسراتها الملوك والحكام والأباطرة المتوجين على الممالك الأوربية، دون تمييز واضح لما يعنيه بالتحديد التوصيف الكلاسيكي. ومن بين أهداف هذه الدراسة أيضا رصد جذور هذه الظاهرة المعرفية بتحليل تجلياتها وتتبع تطوراتها وثوابتها في أبرز الكتابات اللاتينية المسيحية منذ بداية التقليد في القرن الرابع وحتى نهايات القرن الخامس الميلادي.

Abstract (English)

This paper deals with the concept of 'Barbarism' as reflected by the writings of the Latin Church historians during the ٤th to ٥th centuries. Notably, the medieval perception of barbarians contributed to the fashioning of the same rhetoric and the prejudiced image created in the Greco-Roman world, whatever the differences in context and historical circumstances. We will try to answer these questions: are the church authors continued to use the pejorative implications of the word 'barbarian' were almost

invariably present in its use in Graeco-Latin antiquity?. What is the direct effect of the Christian faith on those writers?. We will also try to trace the development of concept particularly after the conversion of the Germanic people to Christianity. The original aim of this study is to delineate more clearly the relation between identity and the look of the other, the old traditions and the new political and culture changes and finally differences between the terms such as 'paganism' and 'barbarism'.

وصلت فكرة التفوق الثقافي والأخلاقي الأوربي إلى ذروتها في القرن التاسع عشر، ومعها انطلقت مهمة تاريخية مفترضة لتحضير بقية العالم من خلال توسيع النفوذ والاستعمار الأوربي، وتم تدشين "المركزية الأوربية" التي ميزت البلدان والشعوب بوصفها إما "متحضرة" أو "غير متحضرة" (برابرة)، وأصبحت القارة الأوربية هي المعيار وأساس المقارنة، فيما عُرف باسم "معيار الحضارة standard of civilization".[١]

وتستند هذه المركزية إلى الإيمان بالأحكام المطلقة أو العابرة للثقافات التي تؤدي بالفرد أو الجماعات لأن يرى/ ترى في القيم التي اعتاد عليها قيماً عالمية، وتؤدي به إلى أن يمارس نوعاً من التمركز الإثني يصل به حد القناعة بأنه يمتلك بشكل دائم الحقيقة أو الحق المطلق، ويصبح ذلك التوجه خطيراً حين يقتنع هذا "المتحضر" ادعاء بضرورة أنه يجب على العالم بأسره أن يفيد من المزايا الخاصة بمجتمعه، وأنه من أجل تنوير سكان البلدان الأخرى يحق له أن يحتلها.[٢] ولا تخضع تلك التصورات ولا تتقيد بمقدار التقدم والتطور المفترض الذي يلحق بالمعرفة الإنسانية، وإنما يبدو أننا في أحايين كثيرة لا نستطيع الفكاك من سيطرة مفردات ومفاهيم من سبقونا.[٣]

في هذه الدراسة سنحاول تتبع تطور استخدام المفهوم ودلالاته في العالم الكلاسيكي وكذلك في التراث المسيحي لاستجلاء أثر هذه التقاليد في الكتابات الكنسية اللاتينية خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين. وستركز الدراسة على تقديم إجابه على سؤال محوري وهو: هل ظل كُتاب الكنيسة وآباؤها أسيرين لاستخدام المفاهيم والمصطلحات الكلاسيكية – ومن بينها مفهوم "البربرية" – بنفس المضامين التي كان يستخدمها القدماء، أم حدثت قطيعة معرفية مع القديم مع دخول القيم المسيحية والإرث العبراني كمكون ثقافي وقيمي رئيس في فكر هؤلاء الكتاب. أو بالأحرى هل انتقلت الدلالات الازدرائية لمفهوم

"البربرية" بنفس صياغاتها في العالم الكلاسيكي اليوناني- الروماني إلى عالم العصور الوسطى الأوربية، وذلك برغم تغير الظروف والسياقات التاريخية. والمقصود هنا بهذا التغير هو أن الشعوب الجرمانية التي كانت تُوصف بـ "البربرية" قد أصبحت أسراتها الملوك والحكام والأباطرة المتوجين على الممالك الأوربية، أم أن تقمص مؤلفي الكتابات الكنسية لـ "الرومنة"، وقبول هؤلاء الحكام وهذه الشعوب للمسيحية أدى إلى انسحاب هذه الدلالات الازدرائية على آخر لم يعتنق المسيحية بعد ولم يتم دمجه في النسيج الأوربي ولم يصبح عنصراً من عناصر الهوية المسيحية الرومانية التي تشكلت ملامحها الأولى في القرن الرابع الميلادي.

ومن ناحية أخرى؛ يميل بعض الباحثين إلى التفرقة بين اللغة المستخدمة في الكتابة والتي تنتمي إلى تقاليد الإمبراطورية والهوية الجماعية[٤]، وبين التصورات المبنية على التجربة المباشرة مع الآخر "البربري"؛ فالتجربة لا شك أنها تُولِد خبرات ثقافية واجتماعية مشتركة وتشكل الهويات، وتبني المعاني، وتحدد الحدود. وبرغم ذلك، ومع التسليم أن التجربة نفسها ديناميكية ومتغيرة باستمرار، فإن التعبير عن الآخر وخبرة التعايش معه تجمع بين فكرة اعتباره مألوفاً أي ليس غريباً، وبين الحفاظ على التقاليد من حيث إعطائه صفات نمطية ومسميات تقليدية معروفة لدى جمهور المتلقين.[٥]

وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى أن عدداً من الباحثين قاموا بدراسة صورة البرابرة في كتابات العصور الوسطى ومن أهم هذه الدراسات؛ دراسة الباحث ويليام رسلي جونز William Rusty Jones الرائدة التي نشرتها مجلة "دراسات مقارنة في المجتمع والتاريخ Comparative Studies in Society and History" في عام ١٩٧١[٦]، والتي ناقش فيها المسميات التي قدمتها كتابات العصور الوسطى للبرابرة وصورة البرابرة كما عكستها هذه الكتابات. ويتضح من عنوان الدراسة شموليتها وامتداد الفترة الزمنية والمساحة الجغرافية التي تغطيها مع تناولها للموضوع من زاوية الصورة لا من حيث المفهوم وهو الجانب المختلف الذي تحاول الدراسة الحالية تناوله. وبشكل عام أفاد الباحث كذلك من دراسة تزفيتان تودوروف Tzvetan Todorov "الخوف من البرابرة"[٧]، التي قدم فيها مؤلفها تصوراً عاماً عن فكرة "البربرية" وصفات البربري قديماً وحديثاً، وبيّن كيف بَنتْ الكتابات الإمبريالية على التصورات القديمة الأسس التي استندت إليها المركزية الأوربية والغربية الحديثة في خطابها المتعالي عن نفسها وتصوراتها عن بقية العالم، وهي الأفكار التي في رأي تودورف قد ساهمت بشكل مباشر في تصاعد تيار الصدام بين الحضارات في مجالي السياسة والثقافة على حد سواء.

وكذلك دراسة الباحث جيمس بالمر James Palmer عن تعريف الوثنية في العالم الكارولنجي والتي تناول فيها مفهوماً تداخل بقوة وطوال العصور الوسطى مع مفهوم البربرية وهو "الوثنية".[٨] ويمكن اعتبار دراسة بالمر مُكَمِلة لهذه الدراسة حيث أنها تتناول سيادة "الوثنية" كمفهوم شامل اندرج تحته مفاهيم أخرى متنوعة من بينها "البربرية" بعد أن نجحت سياسة الكنيسة اللاتينية في ائتلاف

العناصر الجرمانية بنشر المسيحية بينها، وبعد ظهور أعداء جُدد لم يُلاحظ الكتاب اللاتين من صفاتهم وبشكل أكثر وضوحاً سوى مظهرهم كوثنيين، وجاء تناول هذه الدراسة لتعريف الوثنية في فترة زمنية لاحقة على النطاق الزمني لهذه الدراسة وركزت على العالم الكارولنجي حصراً.

المفهوم: معناه وتراثه التاريخي

يعتبر مفهوم "البربرية Barbarism" من المفاهيم التي تعبر عن مضامين المركزية والإثنية، وهو من المصطلحات التي تطورت عبر الزمن، ويمكن أن نطلق عليه أنه "مفهوم سياقي"؛ أي أن معناه قد يختلف وقد يتغير بحسب القائل والمتلقي، وتختلف دلالاته باختلاف العصر التاريخي والمنطقة الجغرافية التي يُقال فيها. ومن المثير للانتباه أن المفهوم الآخر المقابل للبربرية وهو "الحضارة" لم يظهر إلى النور إلا في عصر الأنوار وبالتحديد في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.(٩) ومع ذلك أنتجت قريحة ذلك "الإنسان المتحضر" مفهوم "البربرية" ليعبر به عن التفوق الذاتي self-approval، عندما يقارن نفسه بالآخرين الذين يفترض هو، أنهم يعيشون في مرتبة أدنى من حيث الإمكانيات والثقافة والتهذيب الأخلاقي، والعيش في ظل القوانين المدنية.(١٠) وغالبا ما يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى شخص ما أو شيء ما همجي وغير مثقف وعنيف، ويستخدم كذلك بشكل فضفاض باعتباره نقيضاً لكل ما تعنيه فكرة أن تكون متحضرًا(١١).

وبحسب تزفتيان تودوروف فإن مواصفات المجتمع أو الفرد الذي يمكن أن نطلق عليه "البربري" تتلخص في الآتي: أولاً: البرابرة لا يعترفون بأن الآخرين كائنات بشرية مثلهم وإنما يعتبرونهم مثل الحيوانات فيأكلونهم. ثانياً: يحكمون على غيرهم بعدم القدرة على التفكير وبالتالي لا يستطيعون التفاوض أي أنهم يفضلون القتال. ثالثاً: وهم أيضا أولئك الذين لا يستحقون العيش أحراراً فيخضعون لاستبداد طاغية. رابعاً: البرابرة لا يخالطون إلا من تجمعهم بهم رابطة الدم، ويجهلون الحياة المدنية التي تحكمها القوانين المشتركة فهم متوحشون في حالة تشتت.(١٢)

ويتضح هنا أن استخدام المصطلح بدلالته الثقافية يعود إلى حضارات أقدم من الإغريقية(١٣)، لكن صياغته وتأثيره على الكتابات الكنسية يعود في المقام الأول إلى الإغريق الذين اعتادوا وصف غيرهم من الشعوب بالبربرية(١٤) وإطلاق عليهم مسمى "البربري βάρβαρος" و"البرابرة βάρβαροι"، وفي نفس الوقت ظهرت الثنائية "الهيللينون و البرابرة Ελληνες και βάρβαροι(١٥)"، والتي انتقلت بدورها إلى عالم الرومان لتظهر الثنائية "الرومان والبرابرة Ρωμαῖοι και βάρβαροι"(١٦)، تماما كما ورث الرومان العداء التقليدي بين الفرس وبلاد اليونان. ويدين المسمى في نشأته لضرورات التمييز الثقافي التي تعبر عن مدلولات الاختلافات اللغوية والتباين في العادات والتقاليد، فقد ظهر اللفظ مرة واحدة في الإلياذة(١٧) عند الحديث عن الكاريين Carians سكان المنطقة الجنوبية الغربية من أسيا الصغرى،

حيث تم وصف لغتهم بأنها barbarophōnoi أي أنها غريبة لاختلاف طريقتهم في نطق اللغة اليونانية عن الهيللنيين، ولم يكن القصد من ذلك وصف الكاريين حينها بـ "البرابرة" أو بأفعالهم وتصرفاتهم بـ "البربرية".[١٨] ويمكن القول إن المفهوم كان يعبر في الثقافة الإغريقية عن اختلاف البربري عن الإغريقي في ثلاث خصال أو اختلافات: اللغة والعِرّق والمكان[١٩]، وبين القرنين السادس والخامس ق. م. أخذ اللفظ مدلولات إثنية وقيمية للتمييز بين اليونانيين وما عداهم من شعوب حتى أصبح غير اليوناني بلا روح حتى وإن امتلك عيون وآذان، وجاء هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد وحدد الفوارق التي تفصل الهيللنيين عن غيرهم في الآتي: القرابة واللغة والعبادة والعادات كسمات أساسية تحدد العلاقات الجماعية وتميزها. وبصفة عامة أصبح مألوفاً استخدام اليونانيين لمسمى البرابرة للإشارة إلى مجموعة الشعوب التي كانت تعيش على حدود بلاد الإغريق وبالأخص الشعوب الإسكيزية Scythians (السلافية أو الصقالبة عند العرب)[٢٠]، والجماعات الأخرى التي كانت لا تتحدث اليونانية ولا تعرف الثقافة ولا العادات والتقاليد الإغريقية.[٢١]

هذه الحالة من التفوق أو بمعنى أدق "ادعاء التفوق" قد تكون بلا أثر طالما أن الجوقة الزاعقة بها تتغنى بمفرداتها داخل حدودها، وتؤدي دورها الذي يساهم في تشكيل الهوية الجماعية لأفرادها ويحافظ على تماسك المجتمع، إلا أن الإغريق والرومان ثم بعد ذلك آباء الكنيسة والمفكرين المسيحيين – مع اختلاف التجارب وتباين السياقات – قد تبنوا فكرة العالمية أو الكونية الإغريقية kosmopolites، التي تتعارض مع أفكار المركزية العرقية والتمييز الإثني والثقافي. ولا شك أن أفكار الإسكندر لها جذور فلسفية رومانسية تتمحور حول توحيد الإغريق مع شعوب الشرق الأدنى وصولاً للهند، ثم فكرة "الإمبراطورية الرومانية Res publica"، أو "الدولة العالمية" أي الكيان السياسي الذي يضم شعوباً متعددة من خلفيات عرقية وثقافية مختلفة، التي طالتها تأثيرات الفلسفة الرواقية التي أصلّت فكرة إمكانية قيام دولة عالمية تحقق فيها الوحدة البشرية تحت قيادة حكيمة.[٢٢]

وبرغم انتشار الثقافة الإغريقية مع فتوحات الإسكندر، والحضور اللافت للأفكار الرومانسية حول المواطن الكوني وأحلام إزالة الفوارق بين سكان المعمورة، ظلت التقاليد القديمة تضع فوارق واضحة بين الإغريق وما عاداهم من شعوب "بربرية" بمفاهيم ومضامين إثنية ثقافية وحتى حضارية. وهنا لابد من الإشارة إلى ما ذهب إليه بنيامين إيزاك Benjamin Isaac من أن إعجاب بعض الكتاب الإغريق كهيرودوت ببعض "البرابرة" يوحي بنوع من الاحترام لهم، وأن المعنى السلبي للكلمة في اللغات الحديثة وبالأخص الإنجليزية لا يرتبط بالضرورة بجذور تاريخية يونانية حتى مع التسليم بأن الإغريق كانوا يعتقدون بتفوقهم الحضاري.[٢٣] إننا لا ننكر وجود بعض الإشارات لمفكرين إغريق ورومان سجلت بعض الإشادات

بسلوكيات وممارسات في المجتمع "البربري"، إلا أنها ليست أكثر من استثناءات تؤكد عقدة التفوق الحضاري التي لا تخطئها عين في الخطاب المعرفي والسياسي الكلاسيكي تجاه الآخر.

فقد ورث الرومان المفهوم وما يتضمنه من دلالات من الإغريق وطبقوه على القبائل التي واجهوها في توسعاتهم الإمبراطورية مثل الكلت والجرمان وغيرهم، ودليل ذلك ما أكد عليه شيشرون Cicero (٤٣- ١٠٦ ق.م) عندما ذكر أن الاختلافات ليست قاصرة على اللغة فحسب، بل هناك أبعاد أخرى كالتوجا الرومانية toga التي تعتبر رمزاً للخضوع للقانون والعقيدة الرومانية، وكذلك التمتع بالسلام الروماني، وهذه جميعها ما يطلق عليه "الرومنة Romanitas"(٢٤). وبنفس النبرة عبر تاكتيوس عن التغيرات التي طالت البريطانيين Britons باحتكاكهم بالرومان وخضوعهم لهم، وذكر أن أبناءهم أقبلوا على المناهج التعليمية الرومانية، ومن ثَمَّ بدأت الأمم التي كانت ترفض أو تعجز عن التحدث باللسان اللاتيني في تعلم اللاتينية واشرأبت أعناقها إلى درجات البلاغة فيها. وعلى المستوى المعيشي دخلت التوجا الرومانية دولاب ملابسهم، ورويدًا رويدًا خبروا رغد العيش وترفه وامتلأت بلادهم بالمتنزهات والحمامات والموائد الفخمة، هذا التحول أسماه السكان المحليون بحسب تاكيتوس "الحضارة humanitas"، في حين أنه لم يكن في رأيه سوى نوع من العبودية "servitutis"(٢٥). ومن هنا باتت "الرومنة" تساوي "التحضر"؛ أي أن تلك الشعوب بخضوعها للحكم الروماني ستدخل حيز الأمم المتحضرة باكتسابهم طرائق الحياة الرومانية من مأكل وملبس ومشرب حتى وإن فقدوا حريتهم لصالح الرومان.

هذا لا ينفي بطبيعة الحال أن تاكيتوس وبتلك الروح الرومانية المتعالية قد أسهب ممتدحاً أخلاق الجرمان وعاداتهم الاجتماعية في مقابل الدعة والخمول والأخلاق الرومانية المتهاوية في زمانه. ويبدو أن المؤرخ الروماني قد أراد من إسهابه الشديد عن فضائل الجرمان ومقارنتها بفساد وانحلال الرومان الأخلاقي أن يُقيم نوعاً من المقارنة، وأن يضع أمام الرومان صورة الحياة البسيطة للشعوب الجرمانية بما فيها من نُبل وفضائل لتكون مثلاً ومادة لتطهير المجتمع الروماني المتحضر من شوائب الانحلال والرفاهية. وهي المنهجية التي ستتأثر بها الكتابات الكنسية عند تصديها لتفسير أسباب انهيار المجتمع الروماني إبان الغزوات الجرمانية.(٢٦)

مفهوم "البربرية" في التراث المسيحي

كانت المسيحية بدعوتها للعالمية مثلها في ذلك مثل الرواقية الرومانية تحمل مبادئ الوحدة الأخلاقية والروحية للبشرية بأسرها، وفي الوقت نفسه تتجاوز أفكار البوليس polis اليوناني (دولة المدينة) التي تتمحور حول الأمة والطبقة والقبيلة. غير أن تلك الرسالة الكونية للمسيحية لم تكن – حتى بعد أن تحولت الإمبراطورية إلى المسيحية – السياسة المعتمدة للإمبراطورية تجاه البرابرة. فمع الغزوات الجرمانية واجهت الإمبراطورية الرومانية الغربية منذ القرن الثالث الميلادي، وربما قبله، تحديات خارجية كثيرة كان أقربها

وأهمها الخطر الجرماني الذي بات يهدد العاصمة التليدة روما، ويؤرق مضاجع أباطرتها. وجاء القرن الخامس الميلادي ليعلن عن نهاية مأساوية للشطر الغربي من الإمبراطورية بسقوط روما في يد الجرمان في عام ٤٧٦م.(٢٧) ولم يتبق أمام آباء الكنيسة سوى التمسك بالرومانية إلى جانب ديانتهم المسيحية، كمكون رئيس من مكونات الهوية المسيحية اللاتينية لأوربا العصور الوسطى. ومع تغلغل الثقافة الكلاسيكية التي كانت اللاتينية أحد أعمدتها، ظل آباء الكنيسة وكتابها يستقون ثقافتهم ومفاهيمها ومبادئها من رافدين: الأول كلاسيكي، والثاني يهودي –مسيحي عبر الكتاب المقدس.

ويمكن القول إن آباء الكنيسة عاشوا بهويتين أو بالدمج بين هويتين: المسيحية والرومانية، والإمبراطورية التي كانت في مخيلتهم كانت الإمبراطورية الرومانية المسيحية *Romanum et christianum imperium*.(٢٨) وكل ما طرأ على الخطاب هو عملية تبديل بسيطة؛ فعندما كانت الإمبراطورية وثنية، كان الخطباء والمؤرخون الرومان يعبرون عن الانتصارات العسكرية، على سبيل المثال، بأنها بفضل الآلهة الرومانية، وعندما أضحت الإمبراطورية مسيحية حلت محلها العناية الإلهية، أو المسيح، والعذراء والروح القدس والحواريين، أو القديسين(٢٩).

وإذا أردنا الوقوف على ما كانت تعنيه "البربرية" في عالم العصور الوسطى قبل القرن السابع الميلادي؛ نجد أن الأسقف الإسباني إيزيدور الإشبيلي Isidore of Seville (٥٧٠- ٦٣٦م) في موسوعته "الاشتقاقات *Etymologia*"(٣٠) قد استوعب التعريفات والمفاهيم الخاصة بالبربرية قبله، وذهب إلى تعريف "البربرية" بقوله: "يُقال بربرية من الشعوب البربرية التي كانت لا تتقن اللسان اللاتيني، فما إن "ترومنت" مجموعة من الشعوب البربرية حتى حملوا معهم إلى روما أخطاءهم اللغوية وعاداتهم وكذلك ثرواتهم".(٣١) ويتضح من تعريف إيزيدور للبربرية أنه تعريف لغوي – ثقافي صِرف يرتبط بمعرفة اللسان اللاتيني وأن البربرية هي وجه من وجوه اللحن اللغوي. غير أنه لم يكتف بالتعريف الثقافي للمفهوم؛ ففي موضع آخر يربط بربرية اللسان بالتوحش قائلاً: "والذي لا يعرف لغة قومه، فهو في الواقع، ... يكون أسوأ من الوحوش الغاشمة؟ التي تتميز بصرخات (لغات) خاصة بها، والإنسان الذي لا يعرف لغته فهو أجهل منها"(٣٢). وهنا ينصرف الإشبيلي إلى تشبيه الذي لا يعرف لغة قومه معرفة جيدة بالوحوش التي تصدر أصواتا غريبة، وهذه الأصوات هي لغة التفاهم بينها، ولكن الأسوأ منها ومن صوتها الغريب هو ذلك الشخص الجاهل بلغته، أي أن العجز اللغوي هنا علامة على نقص في الإنسانية كما يرى تودوروف.(٣٣) أما جغرافياً فإن المكان الذي أسماه Barbarica هو ذلك المكان الذي يقع داخل حدود القارة الأوربية ولكنه علامة على "البربرية" وهي منطقة سكيزيا السفلى Lower Scythia التي تمتد حدودها بين الدانوب جنوباً وجرمانيا وبحر الشمال شمالاً وذلك لطبيعة الشعوب البربرية التي كان تسكن فيها.(٣٤) وربط بين "البربرية" والجرمان عندما تصدى للحديث عن الشعوب الجرمانية Germanicus وذكر أنها تُسمى

هكذا لأنهم: "هائلون في الجسد وهم قبائل متوحشة Immanis تصلبها البرد القارس، لقد أخذوا سلوكهم من قسوة المناخ في بيئتهم".[٣٥] وهنا يُعطي الإشبيلي أهمية للمناخ والبيئة في صبغ الشعوب بطبائعها، وذكر أنها شعوب تعيش حياتها على ما تقتنصه من صيد أو إغارة، وفي موضع آخر يصفهم بقوله: "إن وحشية بربريتهم تمنح حتى أسماءهم سمة مرعبة".[٣٦]

جسدت كتابات الإشبيلي عن الجرمان وغيرهم من الشعوب المحيطة بعالم الرومان أفكار رجال الدين الكاثوليك في بواكير العصور الوسطى عن مفهوم "البربرية"؛ تلك الأفكار التي كان الكتاب المقدس قد ساهم في تأسيسها في إطار تأصيل رؤية المسيحية للآخر، فكان أتباع المسيح أنفسهم على وعي بإثنيتهم اليهودية واعتبروا – مثل اليهود – غيرهم أممين Gentiles. وجاء أول ذكر للفظ البربري والبرابرة في الفولجاتا (الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس) في سفر المزامير؛ " In exitu Isra¨el de Ægypto domus Jacob de populo barbaro عند خروج إسرائيل من مصر، وبني يعقوب من شعب أعجمي"[٣٧]. وفي الفولجاتا أيضاً نجد اللفظ يتكرر في سفر المكابين الثاني ولكن هذه المرة بمعنى "همجي" أو "غريب" ita ut universam regionem, cum pauci essent, vindicarent, et barbaram multitudinem fugarent [٣٨] وثمة نص آخر في نفس السفر يورد "البربرية" بوصفها صفة تقابل الوحشية أو القسوة Ne ita ferociter et barbare feceris, sed honorem tribue diei sanctificationis, et honora eum qui universa conspici.[٣٩]

ويمكن اعتبار القديس بولس شخصية محورية في هذا السياق، فقد دأب هو وتلامذته على تقديم أنفسهم بوصفهم يهود وكذلك رومان. ففي رسالة بولس إلى أهل رومية يضع فروقاً واضحة بين اليونانيين وغيرهم؛ "إِنِّي Græcis ac barbaris, sapientibus, et insipientibusdebitor sum مَدْيُونٌ لِلْيُونَانِيِّينَ وَالْبَرَابِرَةِ، لِلْحُكَمَاءِ وَالْجُهَلاَءِ".[٤٠] وفي الرسالة عَينُها يصرح بأنه إسرائيلي من نسل إبراهيم من سبط بنيامين[٤١]، وفي الوقت ذاته تمكن من الخلاص من أيدي اليهود الذين أسلموه للسلطات تعاقبه بالجلد عندما قال إنه روماني.[٤٢]

ووضح القديس بولس التصنيفات التي كانت سائدة بين البشر في عصره وعدهم عداً في رسالته إلى أهل كلوسي وهو يعظهم؛ "... إِذْ خَلَعْتُمُ الإِنْسَانَ الْعَتِيقَ مَعَ أَعْمَالِهِ،١٠ وَلَبِسْتُمُ الْجَدِيدَ الَّذِي يَتَجَدَّدُ لِلْمَعْرِفَةِ حَسَبَ صُورَةِ خَالِقِهِ،١١ حَيْثُ لَيْسَ يُونَانِيٌّ وَيَهُودِيٌّ، خِتَانٌ وَغُرْلَةٌ، بَرْبَرِيٌّ سِكِّيثِيٌّ، عَبْدٌ حُرٌّ، بَلِ الْمَسِيحُ الْكُلُّ وَفِي الْكُلِّ.[٤٣] ويتضح من هذا النص التفرقة التي وضعها القديس بولس بين اليهود واليونانيين وغيرهم من البرابرة الإسيكيزيين الذين كانوا بحسب أحد تفسيرات العهد الجديد "... بدائيون وموضع للسخرية ممن يتحدثون اليونانية".[٤٤] والنص السابق بوصفه نص تبشيري يشير إلى المبادئ العالمية

للمسيحية التي تساوي بين البشر ولا تقيم وزناً لأصول الإنسان النبيلة أو خلفايته العرقية، بشرط أن يتحول المرء إلى المسيحية حينها سيكون الإنسان الحكيم.[٤٥] ولذا نجده في الرسالة إلى كورنثوس يُعرف البربري نفس التعريف اليوناني الثقافي القديم بوصفه مختلفاً لا يعرف لغتنا؛ "إذا لم أكن أعرف قوة اللغة، فسأكون بربريًا لمن أتحدث إليه، والمتحدث هو بربري بالنسبة لي".[٤٦]

وواقع الأمر أن استخدام مسمى البرابرة أصبح مرادفاً في بعض مضامينه لمسميات توراتية وعبرانية أخرى مثل: الأمميين gentīlēs[٤٧] الذي يحمل مدلول الاختلاف العقائدي والإثني بين بني إسرائيل وما عداهم من شعوب، إلى جانب المسمى الروماني- المسيحي "الوثنيين Pagani". لقد كان الجرمان أكثر من ينطبق عليهم مسمى البرابرة الغرباء الذين لا يتحدثون لغتنا والذين لا ينتمون إلى الأنا الرومانية والذين لا يشاركونا عاداتنا وتقاليدنا، وبعد أن أصبحت المسيحية دين الإمبراطورية الرسمي أصبحوا إلى جانب بربريتهم "وثنيون"، والأهم من ذلك أنهم العدو الذي يمثل تهديداً وخطراً يجب مواجهته. ومع مطالعة النصوص الأدبية والدينية والتاريخية لكتاب مسيحيين يمكن بسهولة تلمس أصداء لمسمى البرابرة و"البربرية" وكل ما يندرج تحتها من صفات سلبية ورثها وتمثلها هؤلاء الكتاب ربما لتبنيهم أو لوعيهم -أو بغير وعي- للهوية الرومانية أو لأنهم أنفسهم وفي حالات كثيرة كانوا من طبقات عليا في المجتمع الروماني يتمتعون بالمواطنة الرومانية، ومن ثم يصبح استيعابهم لمفاهيم الاختلاف والأنا المتعالية الرومانية أمراً بديهياً، برغم مبادئ المسيحية التي حضت على الإخاء والمساواة بين البشرية كلها.

"البربرية" في مرحلة القلق: العدو البربري وغزو روما

ومع القرن الرابع أصبح مصير الإمبراطورية والكنيسة واحداً، ورويداً رويداً توارى الكتاب الوثنيون وحل محلهم كُتاب مسيحيون من قسيسين وأساقفة ورهبان وأمسوا المتحدث الرسمي باسم الإمبراطورية والكنيسة معاً. ويمكن البدء بشيخ مؤرخي الكنيسة يوسابيوس القيصري الذي وضع أسس وتقليد الكتابة التاريخية في العالم المسيحي بشقيه اليوناني واللاتيني، ففي معرض حديثه عن انتصار الإمبراطور قسطنطين (٣٢٤- ٣٣٧م) على القوط والصرامتة Sarmatians[٤٨] في عام ٣٣٤م تعامل مع مفهوم "البربرية" بعبارات رومانية كلاسيكية، وذهب للتأكيد على أن قسطنطين قد حولهم من حياتهم الهمجية المتوحشة إلى حالة النظام والمدنية، وأن الله أضاف إلى ملكه الكثير من القبائل البربرية المختلفة، وأن ذلك أكسبهم التمتع بالحرية الرومانية عوضاً عن بربريتهم. وتشبع بمفاهيم الازدراء القديمة عندما وصف سفراء الأمم البربرية الذين توافدوا على قصر قسطنطين بقوله: "كانت وجوههم التي غطاها الشعر قد جعلت أشكالهم غريبة ومنظرهم مرعباً".[٤٩] وفي عمله "حياة قسطنطين vita Constantini" كتب بكلمات مشابهة عن مجد قسطنطين قائلاً: "وإذا تجاسرت بعض القبائل البربرية – المقيمة على شاطئ نهر الراين وعلى ساحل المحيط الغربي- على الثورة، أخضعها كلها ونقلها من حالة البربرية إلى حالة الرقة واللطف. واكتفى بصد غارات

الأخرين، وأبعد عن ملكه كل من رآهم غير جديرين بالحياة المنظمة كأنهم كانوا وحوشاً مفترسة غير أليفة".[٥٠] والواقع أن تعبير الوحوش المفترسة أو الأليفة غير المروضة سيتكرر كثيراً للإشارة إلى الشعوب التي تقع خارج حدود الثقافة والحكم والسيادة الرومانية طوال العصور الوسطى.

وإذا كانت الإمبراطورية في القرن الرابع لازلت مهيبة الجانب مستقرة أوضاعها إذا ما قورنت بالغرب، ففي الشطر الغربي من عالم المسيحية ومنذ أمبروز الميلاني Ambrose of Milan (٣٤٠–٣٩٧م) كان التحالف بين المسيحية والإمبراطورية يعني أن مصيرهما أصبح واحداً ومن ثم أصبح عدوهما أيضا واحداً، فاتبعت المسيحية مبادئ الإمبراطورية أو بمعنى أخر تماهت مبادئ المسيحية الخاصة بالعالمية مع محددات السياسة الرومانية ونظرتها العنصرية الضيقة للآخر، لا سيما بعد أن تخلى المسيحيون عن تقاليد الديانة اليهودية بالتبشير بالمسيحية بين الأمم، ولم يتبق أمامهم سوى التمسك برومانيتهم التي كانت كنيستهم مثلها عالمية وجامعة.

ويأتي القديس أمبروز ليُعلن عن ذلك الارتباط بين المسيحية والهوية الرومانية في مقابل "البربرية" عندما يبرأ بنفسه عن أي شبهة تقربه من البرابرة بقوله: "لم يكن بيني وبين البرابرة عامل مشترك إلا عدم معرفة الرب"[٥١]. لقد عاش أمبروز والمسألة الجرمانية "البربرية" في أوجها لا يضاهيها ولا يحتل مكانة أكبر منها في خطاب آباء الكنيسة سوى مسألة الهرطقة، فقد كان كلاهما الشغل الشاغل والهم الجاثم على صدر كُتاب الكنيسة خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين.[٥٢] فظهر "البرابرة" كأعداء أكثر من أي شيء آخر؛ أعداء لابد وأن تتم مواجهتهم في المعارك الحربية، وأعلن الأسقف الميلاني أن الحضارة الرومانية والبربرية نقيضان. وهنا بدا رجال الكنيسة وأقطابها وكأنهم أعضاء السناتو الروماني القديم أو بوصفهم البُلغاء والخطباء ومستشاري الإمبراطور يستحثون الأباطرة على نجدة الأقاليم من غزوات الجرمان لينقذوا الشعب والمدن والحضارة من عبث البرابرة.[٥٣]

وعلى نفس النهج سار القديس جيروم Hieronymus (٣٤٠– ٤٢٠م)[٥٤]؛ ففي تلخيصه لمجموعة أقوال القديس بوليس عبر عام ٣٩٥م عن هذه المبادئ بتكرار مقولة القديس بولس لأهل غلاطية: "ما إن نتجدد بالمسيح لا يعود بيننا لا يوناني ولا بربري، لا عبد ولا حر، لا رجل ولا امرأة، بل نصبح جميعاً بالاتحاد طبيعة واحدة".[٥٥] وطبقاً لمفكر روماني مسيحي مثل جيروم فإن البربري هو أي مُتحدث بلغة غير اللاتينية خاصة في سوريا وفي صحرائها التي عاش فيها فترة تواجده في الشرق، وكتب في الفترة من ٣٧٥ إلى ٣٧٧م من مارونيا Maronia على بعد ثلاثين ميلاً من أنطاكية. فبالنسبة لغريب مثل جيروم كان البُعد الجغرافي عنده يتمثل في هجرته لثقافته اللاتينية وهويته الرومانية، لأنه لم يجد من يتحدث اللاتينية هناك، فنجده وقد غمرته السعادة عندما تلقى رسالة طال انتظارها من ثلاثة أصدقاء من أكويليا يتحدثون اللاتينية، فخاطب أحدهم قائلاً: "أتحدث إليك وأنا أضمها بين زراعي (الرسالة) وكأنها تتحدث إليّ، ففي

هذه المناطق؛ يجب على المرء إما أن يتعلم لغة نصف بربرية أو لا يقول شيئًا على الإطلاق.[٥٦] أي أن مسألة تحديد من يستحق لقب "البربري" مازال في فكر آباء الكنيسة يدين بالفضل للأسس التي وضعها الكلاسيكيون وهي مبادئ الاختلاف الثقافي وبالأخص اللغوي.

أما صفات هؤلاء البرابرة فهي أبعد ما تكون عن الفضيلة؛ فقد عبر جيروم عن مأساته بوقوع الأراضي الإيطالية وروما تحت سيطرة الجرمان بقوله: "الحقيقة هي أن موطني الأصلي أمسى فريسة للهمجية، لقد أصبح الرب الوحيد للإنسان فيها هي ملئ بطنه، إنهم يعيشون لحاضرهم ومتع دنياهم فحسب، وأضحى الرجل الصالح فيهم هو الأكثر ثراء".[٥٧] وفي موضع آخر يُلمح إلى أن البرابرة نهابون ولصوص يأخذون ما ليس لهم؛ "لقد اضطررت إلى إيفاد أخي بولينيانوس إلى إيطاليا لكي يبيع ما نجا من ميراثنا من بطش البرابرة".[٥٨] وفي سبيله لإقناع إحدى الأرامل بأن تظل على عفتها ويستحثها على عدم الزواج مستحضراً آراء تاكيتوس عن عفة المجتمع الجرماني كنموذج للمجتمعات البربرية قائلاً: "سأروي لك مجرد قصة حدثت في موطنك (إيطاليا)، والتي ستوضح لك أن العفة تحظى بشرف كبير حتى بين الشعوب المتوحشة والهمجية والقاسية".[٥٩]

لقد عاصر جيروم فترة قلقة من التحولات في العلاقة بين الجرمان والرومان، وكان أبرز ما يميز تلك الفترة في الربع الأخير من القرن الرابع وأوائل القرن الخامس هي سياسة ثيودسيوس الأول Theodosius I (٣٧٩ –٣٩٥م) وخلفائه تجاه الجرمان؛ فبعد التهديدات المتكررة التي تعرضت لها القسطنطينية في عهد فالنز Valens (٣٦٤ –٣٧٨م) ارتكزت سياسية ثيودوسيوس وأبنائه على درء خطر الجرمان عن العاصمة الشرقية ومن ثَمَّ توغلت العناصر الجرمانية بعامة والقوطية بوجه خاص داخل الجيش والإدارة في الشطر الغربي. وقد تمَثل الجرمان الذين بقوا داخل حدود الإمبراطورية بعضًا من الحضارة الرومانية، وكانوا في كثير من الأحيان قد أصبحوا مرتزقة للرومان، لا سيما بعد انصراف رعايا الإمبراطورية عن الواجبات العسكرية عطفاً على ميلهم للحياة المترفة فازدادت قوة العناصر الجرمانية في الجيش وفي الإدارة الإمبراطورية.[٦٠] فألاريك، الذي صعد إلى السلطة وكان يتحكم في مقاليد الأمور سار بجيشه القوطي إلى داخل بلاد اليونان سنة ٣٩٦م، وبعد أن اعتنق المسيحية، "اعتقد أن مسيحيته تعطيه مبرراً لنهب ممتلكات الوثنيين" بحسب وصف جيروم، ولا شك أن نقده للملك القوطي كان على خلفية اعتناقه للأريوسية.[٦١]

ووفقاً لظروف بقاء جيروم في الشرق عاش بعيداً عن أزمات أرضه ووطنه يعاني الأمرين بالبعد تارة وبالأخبار المفزعة عن سقوط روما ونهبها تارات أخرى، ولم يعد أمامه سوى تَمَثُل الروح الرومانية حتى وإن كان بعيداً عن روما. وحتى ذلك الوقت لم تكن مسألة المسيحية والوثنية هي الشغل الشاغل لمن هم في حال جيروم وإنما مسألة الانهيار الوشيك للإمبراطورية فأغلب الظن أنه لم يتأثر بأخبار مسيحية آلاريك ولم

تعن له شيئاً فظل القائد القوطي وقومه برابرة في ذهنه وفي كتاباته[٦٢]، حتى عندما تحدث عن ستيلكو ذكر بأنه نصف بربري.[٦٣]

وعبر جيروم عن تأثير الرومنة في السلوك البربري حال معيشتهم داخل حدود الإمبراطورية في رسالته الطويلة الملهمة التي كتبها من بيت لحم بفلسطين والمؤرخة بعام ٣٩٦م والتي بعث بها إلى صديقه هيليودورس Heliodorus أسقف ألتنيوم Altinum في الأراضي الإيطالية يواسيه فيها من فقده لابن أخيه ويعزيه بالنوائب التي حدثت للعالم الروماني وللإمبراطورية على يد "البرابرة"، وقد بدت "البربرية" في ثوبها التقليدي المتوحش الهمجي حيث كتب يقول: "فمنذ ما يزيد على العشرين سنة ودماء الرومان تُراق كل يوم من القسطنطينية إلى جبال الألب اليولیانية، وسكيزيا وتراقيا ومقدونيا والدردنيل وداكيا وأكايه وأفيرُس ودلماشية وبانونيا العليا والسفلى فريسة لهجمات القوط والهون والوندال والصرامتة وغيرهم من البرابرة. فكم من سيدة من عِلِّية القوم وكم من بتول كرست نفسها لله، وكم من امرأة تميزت بالفضل وكرامة المحتد، تعرضت للمهانة والإذلال على يد هؤلاء الوحوش الأفظاظ ... وها نحن مع الأسف نشاهد سقوط عظمة الإمبراطورية الرومانية؛ إلا أن اعتزازنا الوطني يبقى صامداً أبداً وسط الدمار. ونشهد اليوم أهل كورنثيس وأثينا ومقدونيا وأركاديا وجميع بلاد اليونان غارقون في لُجة اليأس يتلوعون من سطوة الشعوب البربرية المتوحشة، وجميعها مدن سبق أن كانت ممالك ذات شأن".[٦٤] وفي وصفه لهجوم الهون على الولايات الشرقية من الإمبراطورية استخدم نفس الصفات المتوارثة عن البرابرة وهجماتهم ووصفهم بالذئاب التي دمرت الديار وصبغت الأنهار بالدماء البشرية.[٦٥] ونفس الوصف جاء على لسانه في موضع آخر عن الهون أيضا: "بلغنا عن طريق رُسل آتين من هنا وهناك، أنباء جعلت الشرق كله يرتعد، إذ أخبرونا أن جحافل غفيرة من فرسان الهون آتية من أقاصي بحر آزوف من بين تاناييس (نهر الدون) وبلاد مساجيتا المتوحشة (قبيلة في آسيا كانت تقيم على الشرق من بحر قزوين)، حيث صد الاسكندر الشعب الهمجي إلى ما وراء القوقاز، قد تدفقت، من كل حدب وصوب واجتاحت نواحي الإمبراطورية، وراحت تزرع الموت والرعب في كل مكان، وسط غياب الجيش الروماني الذي كان منشغلاً في الحروب الأهلية التي تعصف بإيطاليا".[٦٦]

وهنا يمكننا تلمس صفة أخرى – غير اختلاف اللغة – في فكر جيروم أسندها إلى البرابرة، وهي أنهم أعداء يهددون حدودنا وهم في الغالب يتصفون بالوحشية واللاإنسانية، وراح يطبق ذلك على الشعوب الجرمانية التي هاجرت من موطنها الأصلي في شبة جزيرة إسكندنافيا وهاجمت الإمبراطورية الرومانية. ومن ثمّ انضمت القبائل الجرمانية إلى الشعوب البربرية وأصبح استخدام الكُتاب المسيحيين بعد القرن الرابع لهذا المسمى للإشارة للقبائل الجرمانية أمراً عادياً.

وبرغم انطلاق جيروم من خلفية مسيحية تساوي بين البشر بغض النظر عن تصنيفات الإغريق والرومان؛ إلا أنه لم يستطع تجاوز هذه المفاهيم عن التفرقة بين نحن وهم والأنا والآخر. ويُعلق تزفيتان تودوروف على موقف جيروم وغيره من آباء الكنيسة قائلاً: "ومع ذلك؛ ففي العالم الذي يقطنه المسيحيون لا يمكن التخلي عن توصيف البرابرة، ولكن ليس لتعيين كل الذين يتكلمون بصورة سيئة أو لا يتحدثون اللغة المحلية، وإنما للإشارة إلى الأغراب الذين يشكلون تهديداً ويتميزون بوحشيتهم ولا إنسانيتهم، وهذا ما ينطبق على القبائل الجرمانية التي نزلت من الشمال لتنهب الإمبراطورية الرومانية".(٦٧)

غير أن جيروم لم ينس تقديم تفسيراً اعتذارياً يعزي به نفسه قبل أن يعزي به من يراسله بالتأكيد على أن خطايا المسيحيين هي التي أعطت القوة للبرابرة ليفعلوا ما فعلوا لتسقط أمامهم المدن الرومانية كأوراق الخريف شرقاً وغرباً الواحدة تلو الأخرى؛ "... إنها خطايانا التي تنصر البرابرة على الرومان؛ وكأن ما بنا ليس يكفينا، فقد راحت تحصد منا حروبنا الأهلية أكثر مما تحصد سيوف الأعداء. تلك كانت في الماضي مأساة اليهود حين ازدراهم الله وسلط عليهم نبوخذ نصر، وتلك هي مأساتنا اليوم حين ألقى علينا الله غضبه لفرط آثامنا، فسلط علينا شعوباً بربرية همجية، لأنه أنف من أن يعاقبنا بيده".(٦٨) وهنا تبدو البربرية مجرد وسيلة بيد الرب يُعاقب بها المسيحيين على خطاياهم، أي أنها لا تعتبر مهمة بحد ذاتها، وذلك لطبيعة المرحلة العصيبة التي تمر بالعالم الروماني ولطبيعة الرسالة وغرضها الذي أراد أن يقلل فيها جيروم من مصيبة صديقة إذا ما قيست بتلك المصائب والنائبات الكبرى التي عاينها ويعايشها الرومان في كل أنحاء الإمبراطورية شرقاً وغرباً.

ولم يكن رد فعل مسيحيي الإمبراطورية ولا كتابها هو الوحيد المعبر بين الرومان عن حالة القلق واليأس؛ والواقع أن الأحداث التي تلت معركة أدريانوبل ٣٧٨م(٦٩) قد سببت ألماً وكانت بمثابة الصاعقة التي سقطت على عالم المسيحية اللاتينية في نهاية القرن الرابع الميلادي والتي أتبعها موجات وتدفقات من الهجرة الجرمانية داخل الإمبراطورية ظهر صداها في الكتابات الوثنية والمسيحية على حد سواء. فها هو أحد أشهر الكتاب العسكريين الرومان الوثنيين وهو إميانوس ماركللينوس Ammianus Marcellinus(٧٠) الذي لا تختلف لغته وأسلوبه ومفهومه عن البربرية كثيرا عن معاصريه من آباء الكنيسة اللاتينية وكتابها وقت كان فيه الخطر واحداً والعدو واضحاً، وعبر عن ذلك في قوله على لسان الإمبراطور قسطنطيوس أمام جوليان ابن عمه وحشد من الجنود في بلاد الغال قائلاً؛ "... إن البرابرة، كما لو كانوا يسترضون تلك الأرواح غير المنهزمة بتقديم ذبيحة من الدم الروماني، قد أزعجوا سلام حدودنا وهم يعيثون فساداً في بلاد الغال، منتهزين فرصة الضرورة الشديدة تتطلب وجودنا في الطرف الآخر من العالم".(٧١) وفي موضع آخر وهو يمتدح شخصية وأعمال الإمبراطور جوليان راح يؤكد على شجاعة وبسالة البرابرة في الحروب قائلاً؛ "وأخيرًا، ماذا يُقال عن المعارك الناجحة التي هزم فيها البرابرة، الذين غالبًا ما يسقطون وهم يقاتلون حتى

النهاية".[٧٢] ولم يفوت الفرصة وهو يكيل الثناء على الإمبراطور لتذكير المعاصرين واللاحقين بالصفات الأساسية للبرابرة كونهم وحوشاً مفترسة؛ "بينما كان يتبع هذه الأساليب الحكومية التي ينبغي أن تكون قدوة لجميع الحكام الصالحين، ظهر غضب البرابرة بشكل أشد من ذي قبل. فقد كانوا مثل الحيوانات المفترسة التي تعودت على قنص فرائسها نتيجة إهمال الرعاة لها، فحتى عندما يتم تعزيز الحراسة، لا يتوقفون عن هجماتهم على القطعان والأغنام، فهم مجانين بالجوع ولا يهتمون بأمانهم الشخصي. وعندما يستنفد البرابرة غنائمهم، يُجبرون بسبب الجوع على استئناف غاراتهم. في بعض الأحيان ينجح البرابرة في الفوز في هذه الغارات، وفي أحيان أخرى يموتون قبل أن يتمكنوا من الإمساك بفريستهم".[٧٣] وهذا يعني أن اللغة لازالت أسيرة مفردات قديمة وظروف راهنة تتوجب النظر إلى الدخلاء والغرباء المهاجمين نظرة خوف وريبة، ومن ثم تكوين صورة سلبية عنهم سواء أكان الكاتب وثنياً أم مسيحياً.

مفهوم "البربرية" والجدل حول أسباب سقوط الإمبراطورية

واستمرت مرحلة القلق والاحساس بضياع الإمبراطورية لا سيما بعد غزو الجرمان لروما مع بدايات القرن الخامس الميلادي وما صاحبه من حرب كلامية داخلية بين الوثنيين والمسيحيين، حاول فيها كل طرف إلقاء اللوم على الطرف الآخر ليحمله وزر السقوط المتتالي لعاصمة الإمبراطورية. وهنا يأتي القديس أوغسطين Augustine (٣٥٤- ٤٣٠م) الذي انبرى بتأليف كتابه "مدينة الله De Civitate Dei" للدفاع عن مسيحيته التي باتت موضع اتهام على جريمة لم تقترفها وهي سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب، بعد اجتياح القوط الغربيين لروما في عام ٤١٠م،[٧٤] فكان عليه أن يستخدم مهاراته الفلسفية لإنجاز عمل جدلي يُحاج فيه أن السقوط لا دخل للمسيحية ولا المسيحيين فيه هذا أولاً، وثانياً يبرز فيه أن قيم المجتمع الروماني وآلهته الوثنية التي لم تدافع عن مدينة روما التليدة، كانا السبب في ترنح الإمبراطورية وسقوطها تحت أقدام الجرمان، وثالثاً ليبين لمتلقيه من المسيحيين أن المدينة الأرضية لا قيمة لها طالما بقيت المدينة السماوية ماثلة في أذهانهم وأعمالهم. ومن هنا كانت الثنائية الأبرز هي "الوثنية الرومانية" في مقابل "البربرية" وأصبحت المسيحية طرفاً محايداً مراقباً خارج المعادلة لا ناقة له فيها ولا جمل وإن بدت في خضم هذا الصراع ضحية تدفع ضريبة دون مكاسب ولا ثمة بيع ولا حتى شراء!.

وكروماني بدت "البربرية" والرومانية بالنسبة له نقيضان، ففي حين أن "الرومانية" دليل على التحضر والرصانة كانت "البربرية" سلوكاً وحشياً ودليل على قلة التهذيب.[٧٥] وذهب إلى وصف الآثام التي تتعارض مع المسيحية بأنها "بربرية" وكأنها صفة مرادفة للوثنية: "كانت هذه هي التقاليد التي ترعرعت وسطها، أنا الفتى التعيس، وفي تلك الساحة كنت أخشى ارتكاب الأفعال البربرية أكثر من أن أحسد أولئك الذين لم يقترفوها".[٧٦] وفي محاولته للتقليل من شأن الأحداث التي بدت كارثية استعرض مشاهد من

الحروب الأهلية ورأي أن حصادها كان أشد وأنكى مما قام به القوط عند دخولهم روما وراح يتساءل؛ "هل ما يشبه شراسة غرباء وبرابرة، انتصار مواطنين على إخوان لهم في المواطنة؟ وهل تحملت روما شروراً أشد وأرهب مما تحملت؟ أدخول الغاليين إليها قديما واجتياح القوط لها حديثاً أم التسلط الوحشي الذي قام به ماريوس وسولا Sulla وكثير من الرؤساء أعضاء الجمهورية المشاهير المتكالبين على أجسادهم؟ صحيح أن الغاليين قد ذبحوا كل الشيوخ الذين وجدوهم في روما، ما عدا الكابيتول الذي استطاعت قلعته أن تدافع عن نفسها... وبالعكس فإن القوط قد عفوا عن كثيرين، ومن المستغرب أن يكونوا قد ضربوا واحداً منهم، أما سولا وبينما كان ماريوس ما يزال حياً، فقد استولى على الكابيتول الذي حافظ عليه الغاليون ومن داخله أمر بالمذبحة ... نقول إن تلك اللوحة الأخيرة التي وضعها سولا قد ضحت بعدد من الشيوخ أكبر من ذاك الذي استطاع اليوم القوط أن يسلبوهم أموالهم".(٧٧)

وهنا يرصد أوغسطين تغيراً ملحوظاً في سلوك البرابرة الذين أظهروا رحمة بالجماهير عندما قادوهم إلى كنائس أوسع وأرحب لتكون لهم ملجأ يأوون إليها من القتل أو الخطف(٧٨)، في حين أنه ليس ثمة حالة واحدة تذكر لزعيم بربري أمر بعدم دق عنق أي من المواطنين الذين تم العثور عليهم في هذا المعبد الوثني أو ذاك عند دخولهم روما.(٧٩) هذه الشواهد وغيرها توضح الغرض من تأليف الكتاب وهو إظهار فساد المجتمع الروماني الوثني وفشل آلهته، ولذا لم تكن البربرية هنا سوى أداة لتحقيق ذلك، ومن ثم لم يتم التركيز على سلوك البرابرة أو إظهار وحشيتهم بل على النقيض كانوا أكثر إنسانية إذا ما قورنوا بالشرور والآثام التي ارتكبت في ظل سيادة الأخلاق والتقاليد الإغريقية والرومانية الوثنية.

ونزع أوغسطين بنقده للمجتمع الروماني الوثني عنه رومانيته وأصبح المسيحيون في رأيه هم الرومان الحقيقيون، وعقد مقارنة بين رد فعل المسيحي والوثني عندما يخضعا للتعذيب، وقام بتشبيه تحمل المسيحي للعذاب وتنازله حتى عن المطالبة بالثأر قائلاً: "أولم يتحرروا من النظام البربري والحق الوحشي المطالب بدم المغلوب".(٨٠) لقد عانى أوغسطين مثل كل رجال عصره من الخراب الذي أحدثته الغزوات الجرمانية على المقاطعات الرومانية شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً حيث مسقط رأسه في شمال إفريقيا، فقد نشر الوندال — الذين وصفوا أيضا بالبرابرة – الرعب هناك، ودمروا المدن والقرى والكنائس بلا رحمة، بل وحاصروا مدينتة هيبو المحصنة.(٨١) وجاءته أنباء مقتل بعض الرهبان المصريين في أديرتهم على يد بربراة، وآخرون مثلهم لقوا مصرعهم في إيطاليا وبلاد الغال، وحتى أثناء الصراعات الدينية بين الدوناتيين(٨٢) وخصومهم حدثت مذابح مماثلة كانت في قسوتها أشد مما يفعله البرابرة على اعتبار أن ما يفعله البرابرة هو مقياس لكل الشرور.(٨٣) وعاصر أوغسطين في شمال إفريقيا برابرة آخرون من وجهة النظر الرومانية المتعالية وهم "البربر" الذين اشتهروا في ذلك العصر بممارساتهم السحرية وطقوسهم الدينية الغريبة والغامضة. ففي رسالة بعث بها إلى أوغسطين أحد ملاك الأراضي في لبدى الكبرى على ساحل البحر المتوسط في ليبيا الحالية يسأله فيها ويطلب رأيه في

أن له أرضاً وهذه الأرض يحرسها رهط من البرابرة الذين يقومون بالاستعانة ببعض الطقوس لآلهتهم لحماية الأرض والمحصول، فيخشى بذلك أن تتنجس الأرض والمحصول بممارساتهم الوثنية.(٨٤) وهنا تظهر البربرية مرادفة للوثنية؛ وكأن الحالة التي كانت عليها الإمبراطورية من تداعي وسقوط قد وحدت بين البربرية كصفة تفرقة ثقافية وسلوكية لتصبح مرادفة للوثنية في خندق العدو المقابل للهوية الرومانية المسيحية التي كانت في طور التشكيل في ذلك الوقت.

وعلى الدرب ذاته سار أوروسيوس Orosius(٨٥) الأسقف الإسباني الذي يعكس مؤلفه: "التواريخ ضد الوثنيين Historiae adversus paganos"(٨٦)، محاولة كاتب التاريخ الديني الدفاع عن المسيحية ضد الاتهامات التي ساقها الوثنيون نحوها بمسئوليتها عن سقوط الإمبراطورية الغربية. وجاء تأليف أوروسيوس لكتابه تحقيقاً لرغبة القديس أوغسطين "للرد على أهل الجاهلية" على حد تعبير أوروسيوس نفسه، ولإثبات أن المصائب التي مرت على العالم الروماني من غزوات جرمانية في القرن الخامس لا تضاهي ما تعرض له العالم في الأزمنة الماضية، حيث كان الجهل والوثنية يسودان قبل أن يأتي المسيح ويقيم دعائم العدل الإلهي.(٨٧) وقام باستخدام تعبير "الرومانية Romaniae" للتفرقة بين ما هو روماني وما هو بربري؛ بحيث كان البرابرة والرومان جنسان مختلفات أي أمتان متمايزتان، وبالتالي فهناك جملة من الصفات التي يتصف بها البربري تميزه عن الروماني.(٨٨) فالبربرية ممارساتها وثنية يقوم أصحابها بقتل الغرباء أو الضيوف وشرب دماءهم كطقس تضحية لآلهتهم(٨٩)، وكذلك يتصف البربري بالخيانة والخديعة ويأتي بأفعال شنيعة مثل قطع الأيدي بعد أخذ العهد والاستئمان، كل ذلك في مقابل حُسن السريرة والاعتدال الروماني أي السلوك المتحضر في التعامل مع الآخر وهو استنتاج خاطئ تاريخياً لكنه يخدم رؤية الكاتب وتوجهه.(٩٠) بدا أورسيوس هنا وكأنه كاتب روماني معاصر لتاكيتوس أو سترابون عندما وصف الغاليين بأنهم برابرة لأنهم يعلقون رءوس جثث أعدائهم على رقبة خيولهم.(٩١) وضرب مثلاً من واقعه المعاصر بعقد مقارنة بين إثنين من الملوك أحدهما راداجايثوس Radagaisus القوطي (ت. ٤٠٦)(٩٢) الذي يصفه بأنه زعيم سكيزي ووثني وبربري؛ حيث يجمع كل صفات القسوة والوحشية والهمجية في شخصيته، وفي المقابل يأتي الإمبراطور هونوريوس Honorius (٣٩٣- ٤٢٣م) ممثلاً للجانب الآخر فهو المسيحي وهو الروماني، أي أن أورسيوس هنا يؤكد على اتحاد الرومانية بالمسيحية في الهوية الجديدة في مقابل البربرية والوثنية.(٩٣)

ولم يغن عن القوط وغيرهم من الشعوب الجرمانية اعتناقهم للمسيحية من اعتبارهم برابرة متوحشين خارج حدود الهوية طالما أنهم كانوا على مذهب "مهرطق" مخالف للعقيدة الكاثوليكية وهو المذهب الأريوسي.(٩٤) ومن ثَمَّ تزداد حدة الانتقادات في حالة أن تقترن صفة البربرية مع الهرطقة وممارسة الاضطهاد تجاه الكاثوليك، فنجد أورسيوس يروي بأسى همجية الملك القوطي أثاناريش Athanaric عندما اضطهد مسيحيي القوط بأن أعمل فيهم القتل فاضطروا للجوء إلى إخوانهم في العقيدة من المسيحيين الرومان برغم

أنه وصفهم بالبرابرة إلا أنه دافع عن إيمانهم "القويم"، وحُسن الاستقبال الروماني- المسيحي لهم.[٩٥] ويظهر ذلك جليا كذلك من كم الصفات السلبية التي ألصقها بروسبر الأكويتيني بجيزريك الوندالي Gaiseric (٣٣٩- ٤٧٧م) عند تصديه للحديث عن قصة رجال الدين الكاثوليك الذين أذاقهم الملك الوندالي من العذاب صنوفاً وألواناً لرفضهم التخلي عن مذهبهم الديني واعتناق الأريوسية عقيدة جزريك.[٩٦]

وبروح رومانية مماثلة كتب القس المسيحي سالفيان Salvian في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي وبالتحديد في عام ٤٤٠م أن: "جميع البرابرة تقريباً، أو على الأقل أولئك الذين هم من جنس واحد، يحبّون بعضهم البعض، في حين أن الرومان يضطهدون بعضهم البعض". وأشار إلى أن العديد من فقراء الرومان لجأوا إلى "البرابرة" طلبًا للمساعدة: "إنهم بلا شك يبحثون عن الإنسانية الرومانية بين البرابرة، لأنهم لا يستطيعون تحمل الوحشية البربرية بين الرومان".[٩٧]

ولم يجد أمامه سوى الاعتراف بحقيقة أن مظاهر الحياة عند البرابرة أفضل من تلك التي يتمتع بها الرومان[٩٨]، وراح يجاوب على سؤال مهم في زمانة فحواه أنه إذا كان الله يدير هذا العالم بعنايته وتدبيره الإلهي فلماذا يخضع الرومان للبرابرة، ولماذا كُتب عليهم الغزو والذل والمعاناة؟. وذهب إلى نفس التفسير الذي ساقه أوغسطين وأورسيوس قبله أن سبب كل هذا رذائل المجتمع الروماني التي بسببها عوقب الرومان ومن ضمنهم المسيحيين بطبيعة الحال بالغزو الجرماني وسقوط روما المتتالي.[٩٩] وهو تبرير أشبه بالذي صاغه تاكيتوس عند حديثه عن فضائل المجتمع الجرماني رغبة منه آنذاك في تطهير المجتمع الروماني. وفي نفس الوقت لم ينف الأسقف الغالوروماني كون الرومان أفضل من البرابرة كمقدمة منطقية، لكنه فسر حالة الخضوع الروماني للبرابرة بأن الرومان وإن كانوا جديرين فإنهم آثمون، وبقدر جدارتهم تكون الخطيئة مذلة وتهوي بصاحبها من عليين إلى أسفل سافلين.[١٠٠]

ووضح مفهوم "البربرية" أكثر عند سالفيان عندما حاول تقديم تفسير لفرضية أن يكون الروماني في بعض الحالات أسوأ من البربري. وراح يُقَسم البرابرة إلى صنفين: الهراطقة والوثنيين: "أقول إننا أفضل بما لا يدع مجالاً للشك من كل هؤلاء، إذا ما تعلق الأمر بعقيدتنا الدينية. أما فيما يخص دنيانا وأعمالنا في حياتنا الدنيا، فإنني بكل أسف أقول وأنا حزين أننا الأسوأ".[١٠١] وذهب لنزع الأفضلية عن "الرومانية" التي وضعها كنموذج في بداية حديثه لكنه حدد الرومان المذنبين الذين يقصدهم لا السلوك والثقافة الرومانية برمتها وحتى يكون كلامه عن الرومان الصالحين خص المسيحيين من بين كل من يحملون الهوية الرومانية، ومدح فيهم العقيدة المسيحية الكاثوليكية: " ... لقد قلت إن حياتنا الحالية هي الأسوأ، ولكن الجزء الأفضل فينا هو، بلا شك، باقٍ بسبب الإيمان الكاثوليكي". وأكمل بالتأكيد أنه "لن يغني عنا شيئاً ما دومنا لا نتمسك به... إذ لا فضل لنا في عظمته ما دامت طريقتنا في الحياة بعيدة عنه"، وأضاف أن حياتهم البائسة تلك هي نتاج ما اقترفته أيديهم من آثام.[١٠٢]

ولخص سالفيان الحالة التي عليها الرومان واستحقوا بسببها العقاب الإلهي بغزو البرابرة لهم، عندما عقد مقارنة بين أخلاقيات الرومان قياساً لطبيعة البرابرة بقوله: "وبعد أن وضعنا جانباً أفضلية الشريعة الإلهية، ... دعونا نقارن أعمال وأخلاق ورذائل البرابرة بسلوكياتنا: البرابرة ظالمون، ونحن كذلك. البرابرة طماعون، وكذلك نحن. البرابرة غير مخلصين، وكذلك نحن. البرابرة جشعون، ونحن كذلك. البرابرة فاسقون، وكذلك نحن. البرابرة لديهم كل أنواع الشر والنجاسة، ونحن كذلك".[١٠٣] هذه المقارنة تؤكد أن مصدر الشرور والآثار ومرجعية الشر ودونية الأخلاق في رأي سالفيان هي "البربرية"، وأن نقده لرومان زمانه في حالتهم تلك يُثبت إيمانه بلا موارية بأفضلية "الرومانية Romaniae"، كطبيعة ثابت ومعيار للحضارة على البربرية ونقيضة لها.[١٠٤]

كتب إذن سالفيان وأورسيوس من خلفية رومانية خائفة ومتوجسة من البرابرة؛ غير أن أورسيوس وضع حلاً يبدو من وجهة نظره ناجعاً للمسألة الجرمانية باستيعابهم وقبولهم للعقيدة الرومانية (المسيحية)، هذا الحل الذي يعد حلاً سلمياً بامتياز عوضاً عن الحقبة الوثنية التي اصطبغت بصبغة الصراع بين الوثنية والبربرية.[١٠٥] وعبر عن ذلك بضرب المثال عن النجاح الذي حققته البعثات التبشيرية في إسبانيا بأن التعاون والصداقة حلا محل الصراع والمخاصمة بين البرابرة والرومان.[١٠٦] ومن هنا كان الحل الأمثل للتعامل مع الظاهرة البربرية هو ائتلاف قلوبهم بنشر المسيحية بينهم.

التنصير وتغير المفهوم: "البربرية" صفة الهمجية التي تتهذب بالعماد المسيحي

كان إيزيدور الإشبيلي قد قدم تعريفاً للوثنية والوثنيين gentilis يكشف عن طبيعة الاستراتيجية التي انتهجتها الكنيسة اللاتينية تجاه الشعوب البربرية عندما فرّق بين نوعين من الوثنية، النوع الأول يمكن علاجه لأنها ببساطة وثنية ناتجة عن جهل وعدم معرفة بحكم أنه "مولود" أي على الفطرة، فيكون التعامل الأمثل معه إزالة الجهالة عنه بتثقيفه دينياً، وبنشر العقيدة بين قومه. فقد أشار إلى أن المسمى جاء من *genitus* (مولود)، ويشير إلى المجتمعات (الأمم) البدائية التي لم تؤمن بعد، وتعيش كما ولدت بدون قانون أو شريعة، ويعبدون الأصنام، وذهب إلى القول بأنهم لم يولدوا بعد[١٠٧]، ومن الواضح أنه كان يقصد أن "الوثنيين" لن يولدوا إلا بعد تعميدهم. أي أن ذلك البربري الذي لا ينتمي إلى العالم المسيحي *corpus christianum*، سيظل على بربريته حتى يتقبل العقيدة المسيحية، فيتبدل وضعه من إنسان آثم ومتوحش وهمجي إلى تقي وصالح ومُهذب. أما النوع الثاني وهي الوثنية المرتبطة بالهللينية[١٠٨]؛ فهي ذات طابع مختلف وأكثر تعقيداً لأن أصحابها بحاجة إلى حجج وأدلة عقلية، وأن محاولات تنصيرهم قد لا تنجح، ومن ثم استلزم الأمر إتباع سياسة أخرى معهم، سياسة اعتمدت على التحقير والتقليل من شأنهم، وإنتاج خطاب دعائي عدائي ضدهم[١٠٩].

وحتى قبل القرن الرابع قرن الكتابات التاريخية الكنسية، نلاحظ حضور تلك الثنائية البربرية/ التحضر، والبربرية/ الوثنية التي لا تجعل من "البربرية" نقيضاً للتحضر بمعاييره الكلاسيكية فحسب وإنما بوصفها نقيصة مجردة متعالية ونقيضاً أيضًا للإيمان. وفي محاولة آباء الكنيسة تحديد الهوية المسيحية وتمييزها عن اليهود واليهودية نجد القديس يوستينوس الشهيد (ت. ١٦٥م) يقول في جداله مع تريفون اليهودي: " ... نحن المسيحيون لسنا شعباً فقط بل شعب مقدس"، وذهب إلى تأكيد قوله بشواهد من العهد القديم، ثم استطرد قائلاً: "إذن فنحن لسنا شعباً محتقراً ولا قبيلة من البربر ولا مجرد أمة ... بل شعب مختار من الله الذي صار ظاهراً للذين لم يطلبوه ... لأن هذه هي في الحقيقة الأمة التي وعد الله بها إبراهيم"(١١٠).

ويأتي التعميد المسيحي ليمثل الوسيلة الوحيدة التي بها يتخلص ذلك البربري من الوحشية والهمجية أي "بربريته"، ونجد أوضح مثال على ذلك ما ذكره أوريجن السكندري ممتدحاً التعميد بقوله: "ولكن أنت أيضًا، يا من ترغب في الحصول على المعمودية المقدسة ويا من تستحق نعمة الروح (القدس)، يجب أن تتطهر بالشريعة، ولزاماً عليك أولاً أن تُمحى خطاياك كلها بكلمة الرب، وتذر طبيعتك البربرية والقاسية *mores barbaros*، لتنال نعمة الروح القدس، وبذلك ستكون مُهذبًا ومتواضعًا"(١١١). وفي ذات السياق كان يوسابيوس قد ذكر عن اليهود أنه: "عندما انتشر ناموسهم وذاع كرائحة طيبة بين كل البشر، لانت طباع أغلبية الوثنيين نتيجة لتأثيرهم، وذلك بواسطة المشرعين والفلاسفة الذين قاموا في كل ناحية، وتبدلت وحشيتهم العنيفة القاسية إلى وداعة، حتى أنهم تمتعوا بالسلام العميق والصداقة والمعاملات الاجتماعية."(١١٢)

وفي القرن الرابع وفي الشرق البيزنطي كتب أيضاً القديس يوحنا ذهبي الفم Chrysostom (ت. ٤٠٧م)(١١٣) تعليقاً على نص من رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس يقول: "ماذا إن كان الإنسان غنياً، وإن كان من الأشراف، فإنه عندما تسبيه خطية ما يصير أكثر فساداً من كل فساد. فإن كان الإنسان ملكًا قد أسره البرابرة يصير أكثر الناس بؤساً، هكذا بالنسبة للخطيئة، إذ هي بربرية، والنفس التي تصير أسيرة لا تعرف كيف تتخلص من الأسر، فتقوم الخطيئة بدور الطاغية لتحطم كل من يلتصق بها".(١١٤) وهنا يقيم القديس ذهبي الفم تشابهاً بين الخطيئة في العقيدة المسيحية وبين وقوع أحد الملوك الأشراف مأسوراً في يد البرابرة، فالخطيئة والبربرية شبيهان، فكما تسلب البربرية الحرية يسلب الإثم الإرادة الإنسانية. وفي القرن الخامس ازدادت معرفة الشرق البيزنطي بالهون كأحد ممثلي البرابرة الهمجيين بعد السفارة التي قام بها بريسكوس موفداً من الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني Theodosius II (٤٠٨-٤٥٠م) عام ٤٤٨م إلى بلاط الملك الهوني آتيلا ليقدم في تقريره تفاصيل ومعلومات قيمة عن الهون وعاداتهم وتقاليدهم وملكهم وبلاطه وحاشيته.(١١٥)

ومع أواخر القرن الخامس بدأت تنزوي مفاهيم "البربرية" القديمة التي كان يمثلها الأمم والشعوب والقبائل التي تقع خارج حدود الهوية الرومانية، ومعها اختفى العنصر الوثني من الهوية الرومانية لصالح العنصر المسيحي بحيث أضحي كل من هو روماني هو مسيحي وكل مسيحي كاثوليكي هو روماني. وانسحبت بذلك صفات "البربرية" على ما تبقى من شعوب خارج نطاق الكاثوليكية حتى وإن كانوا رومان وحتى وإن كانوا مسيحيين، لتكون "البربرية" صفة مرادفة للوثنية. فيمكن أن يتحول البربري إلى روماني – ولو ضمنياً – شريطة أن يتقبل العماد المسيحي ويتخلى عن بربريته، عندما يتعلم الحكمة فيتخلص من جهالة البرابرة ووحشيتهم.

وفي إسبانيا، وفي النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي وبدايات القرن السادس الميلادي، شبه الشاعر "الروماني" المسيحي بروديتيوس Prudentius الاختلاف بين المسيحيين والوثنيين بالفوارق الشاسعة بين الإنسان المتحضر (الروماني) والآخر المتوحش الذي يمثله (البربري)[١١٦]؛ وذهب للقول: "يسير الروماني والسارماطي والوندالي والساكسوني والهوني والآلماني... على أرض واحدة وتظلهم سماء واحدة ويحيط بهم بحر واحد .... لكن الروماني يختلف عن البربري sed tantum distant Romana et barbara".[١١٧] وحتى يبرر هذه التفرقة راح يصف تعامل البرابرة مع أعدائهم المنهزمين بأنه سلوك همجي وغير إنساني[١١٨]، ونجده في قصيدة من قصائده يجمع بين الممارسات الوثنية والبربرية:

يتمتعون بالذبائح لحماً ودماً من الوحوش ويأكلون منها نهما

فدع للوثنيين أعيادهم البربرية وذبائحهم التي ينحرونها جشعا"[١١٩]

وفي قصيدة أخرى هجائية نظم يقول:

أخضع بولس المبشر بقلمه القدوس للرب قلوب القبائل الجامحة الأممية

وزرع معرفة المسيح بوصاياه الحميدة على أراضٍ بربرية تتبع طرقًا وحشية[١٢٠]

وفي نفس القصيدة يعبر عن تأثير المبشرين بالمسيحية في أراضي الشعوب البربرية والأمميين، وما حدث من تغير في طبائعهم بقوله:

فليرجع الإنسان إلى الكهوف وليلبس أثواباً مشعرة من جلود الصوف

رجال البرابرة رُوضت قلوبهم وتبدلت طبائعهم الوحشية من دون خوف[١٢١]

ويبدو أن فكرة أصالة التوحش وارتباطها بالبربرية كانت عنواناً على سير القديسين المبشرين بين ظهراني الجرمان. فنجد في رسائل القديس بازل أثناء حديثه عن أحد المبشرين في أراضي القوط صدىً لفكرة "ترويض البرابرة بقوة الروح"[١٢٢]. ويتضح أكثر تأثير المبشرين على "البرابرة" في قصيدة مدح للقديس والشاعر باولينوس من نولا Paulinus of Nola (٣٥٤-٤٣١م) موجهة لصديقه نيكيتاس Nicetas، الذي يبدو أنه كان في طريقه لرحلة تبشيرية بين الشعوب البربرية، فيعبر باولينوس عن ذلك

قائلاً: "عملك هو تحويل الذئاب إلى حملان ... الحيوانات المستأنسة *mansueto pecori* التي تخلت عن طبائعها الشرسة بعدما تهذبت عقولها الجامحة بخطابك الحضاري. في هذه المنطقة الصامتة من العالم، من فيض عظاتك يتعلم البرابرة أن يُصدعوا الآن في تلك البقاع باسم المسيح بروح رومانية، وأن يعيشوا في طهارة وسلام روحي".(١٢٣) هنا تظل "البربرية" صفة سلبية لحاملها إلا أن التهذيب الوحيد لها يكمن في الإيمان المسيحي الذي يجعل المرء ينفض عنه غبار الهمجية. ويشير هذا الاقتباس أيضاً إلى أن عملية التنصير لا تقتصر على قبول الإيمان المسيحي فحسب، وإنما اعتناق العقيدة –التي امتزجت بالدولة– يُمَكِن المؤمن الجديد من التخلص من بربريته بالحصول على الهوية الرومانية. وتتجلى في كلمات هذا القديس المثل العليا في الأخلاق (الفضيلة المسيحية)، وفي السياسة (السلام الروماني)، وبالتالي فهما لاهوت وناسوت الهوية الأوربية في العصور الوسطى. ولهذا دأبت الكنيسة الرومانية على إيفاد "الإرساليات التبشيرية" إلى الشعوب الجرمانية حتى تجتذبها وتأتلف قلوبها ضمن سياسية التضمين للوثنيين وأداتها في ذلك التنصير.

البرابرة الجُدد: مفهوم "البربرية" وعملية دمج الشعوب الجرمانية

لقد كان التحول الأهم والمؤثر في الطريق الطويل الذي امتد للقرن العاشر الميلادي الذي سارت فيه الكنيسة الكاثوليكية، هو اعتناق الفرنجة تحت قيادة كلوفيس للكاثوليكية عام ٤٩٦م، والبرجنديين تحت قيادة سجسموند بعد عام ٥٠٠م.(١٢٤) وخلال عمليات التحول هذه تأسست الممالك الجرمانية فكان على رجال الكنيسة تضمين الشعوب الجرمانية (البربرية) في تاريخ العقيدة، وهو ما يمكن تسميته بـ "تقنين الذاكرة الحضارية" التي حدثت في أوربا خلال القرون من الرابع وحتى القرن السابع الميلادي. وفي هذا السياق برزت قضية الأصل العرقي لسكان أوربا(١٢٥)؛ التي تم تناولها في تلك الفترة المشار إليها باستحضار قصة أبناء نوح الثلاثة (سام، حام، يافث) من الكتاب المقدس مع إبراز البشارة بكثرة نسل يافث الذي سكن أوربا.(١٢٦) وكان المؤرخ اليهودي يوسيفوس Flavius Josephus (٣٧- ١٠٠م) أول المساهمين في هذه تفسير القصة(١٢٧)، ثم القديسين أوغسطين وجيروم وكذلك أوروسيوس(١٢٨)، ثم القديس إيوشر Eucher أسقف ليون Lyons في منتصف القرن الخامس الميلادي.(١٢٩) ثم جاء الإسهام الأبرز لإيزيدور الإشبيلي وذكر أن سكان أوربا ينحدرون من نسل يافث؛ فعنده الغاليون والإغريق والإيطاليين والأسبان وسكان آسيا الصغرى، وحتى القبائل الجرمانية مثل القوط ذكر أنه يُقال إنهم ينحدرون من ماجوج بن يافث، وأكد أن كل هذه الأمم سكنوا وورثوا أبناءهم المنطقة الممتدة من جبال طوروس في الشرق حتى المحيط البريطاني في الغرب(١٣٠)، وفسر كثرة نسل يافث التي بشره بها أبوه نوح بأنها كثرة للمؤمنين.(١٣١) وهنا يربط الإشبيلي بين أوربا وساكنيها من أبناء يافث ووصفهم بالمؤمنين، أي يربط بين القارة وساكنيها وعقيدتهم الدينية في إشارة منه إلى إنتمائهم للعقيدة المسيحية الكاثوليكية.(١٣٢) وجاء بيده في القرن السابع

وحاول تفسير المعاني التي وردت في سفر التكوين بالتأكيد على أن الكنيسة الأولى قامت على أكتاف بني سام، ثم شهدت امتدادها وازدهارها على يد أبناء يافت.(١٣٣)

كانت الممالك الجرمانية في السابق منبوذة لبربريتها، ولكنها استطاعت أن تضمن لنفسها البقاء في السلطة – التي نالتها بسواعدها – عن طريق استعمال طبقة رجال الدين في الترويج لها وتأصيل عرقيتها لتتواءم مع التوجهات الدينية التي كانت قد استخدمت الجينالوجيا (علم الأنساب أو الأعراق)، في تضمين هذه الشعوب في تاريخ الكتاب المقدس لتكسبها شرعية لوجودها وسيادتها بعد أن توارى خطاب السيادة الروماني، وتم التركيز على أهمية الأصل العرقي لهذه الشعوب وربطه بحقها في المطالبة بالسلطة أو القفز عليها.(١٣٤)

وظهر هذا التوجه أولا في إيطاليا مع الفيلسوف والمعلم كاسيودوروس الذي تجنب وصف أسياده من القوط الشرقيين وملكهم ثيودريك بالبرابرة، في حين كان سهلاً عليه أن يصف أعداء وجيران والخاضعين للقوط بهذه الصفات. وفي القرن السادس الميلادي نادراً ما استخدم مؤرخ الفرنجة جريجوري التوري لفظ برابرة، ولم يستخدمه مطلقاً للإشارة إلى الفرنجة، وفي كتابه عن المعجزات استخدمه مرادفاً للوثنية.(١٣٥)

ومن هنا بدأت عملية الإبدال التي ستصبح علامة على البربرية فيما بعد، فبدلاً من الثنائية (الرومانية – البربرية)، حلت المسيحية محل الرومانية لتصبح التفرقة بين ما هو مسيحي وما هو بربري barbarus vas christianus مع القرن السابع الميلادي. وذلك بعد أن تنصر الجرمان الذين كانوا يمثلون البربري، وأصبح اللفظ البديل هو الوثني/ الوثنية الذي يقابل مسيحي/ المسيحية التي اندمجت مع الهوية الرومانية لتكَّون هوية مسيحيي العصور الوسطى الأوربية. حدث ذلك عندما تحولت العقيدة إلى هوية فأصبحت البربرية علامة على حالة الشعوب قبل اعتناقها للمسيحية، وكذلك الحال مع الشعوب التي تحولت من الأريوسية إلى الكاثوليكية.

ومع منتصف القرن السادس الميلادي (٥٥١م تقريبا) أفرز هذا التوجه نموذجاً جديداً لم يكن مألوفاً من قبل في تقاليد الكتابة التاريخية التي أولت اهتمامها بالتاريخ الروماني أو التاريخ الكنسي. هذا التقليد من الكتابة التاريخية كان المؤرخ القوطي جوردان Jordanes أول من وضع أسسه بعمله عن "أصل وأعمال الجيتاي De origine actibusque Getarum"، وتبعه في ذلك جريجوري التوري Gregoire de Tours (ت. ٥٩٤م) ومؤلفه عن تاريخ الفرنجة Historia Francorum"، وبيده عن الأنجلوسكسون، وبولس الشماس Paul the Deacon (ت. ٧٩٩م) عن اللمبارديين Historia Langobardorum. ويمكن أن ينضم كذلك لهؤلاء الكُتاب إيزيدور الإشبيلي الذي كتب في القرن السابع عن القوط واللمبارديين والفرنجة بشكل منفصل عن الشعوب الجرمانية والبربرية، فقد كان يحاول كما سبقت الإشارة ضمهم إلى نسيج الأمة المسيحية مستبعداً انتمائهم إلى الأمم

"البربرية".[١٣٦] وكانت النتيجة الأبرز لهذا التقليد هي أنه للمرة الأولى منذ احتكاك هذه الشعوب بالحضارة الرومانية يتاح لها الفرصة لتعبر عن نفسها بلغة ومضامين – بل وبهوية – امتزجت فيها عناصر هوياتها الإثنية بالهوية الرومانية المسيحية التي تشكلت ملامحها منذ القرن الرابع الميلادي.[١٣٧]

وقدمت هذه الكتابات ما يمكن تسميته بـ "التاريخ الجديد" الذي تجاوز المفهوم الروماني للبربرية، وألبسه برابرة جدد في أعقاب رومنة الجرمان — على الأقل من الناحية النظرية –باعتناقهم للمسيحية. ويظهر ذلك جلياً في الكتابات التاريخية اللاحقة التي آمنت بفكرة الإمبراطورية وروجت لها، ووظفت ثقافتها الدينية في الدعاية للحكام الذين أعادوا إحياءها. ويشهد ما جاء في النصوص اللمبردية من القرنين السابع والثامن الميلاديين على ذلك؛ فقد ربطت تلك النصوص أصول اللمبارديين بالقارة الأوربية، وأشادت بتركهم للأريوسية وإيمانهم بالعقيدة الكاثوليكية، بل كما يذهب كارل ليزر: "إن بولس الشماس بصمته عن أصول اللمبارديين البربرية كان يقصد ضمناً تحضرهم لانتسابهم للقارة الأوربية".[١٣٨]

نتائج البحث

من هنا يمكن استخلاص النتائج الآتية:

أولاً: كان كُتاب الكنيسة وآباؤها قد تَمَثلوا الهوية الرومانية وأدمجوها مع المسيحية، ومع استيعاب هؤلاء الكتاب للرومانية انتقلت الأنا الرومانية إليهم، وانسحب الآخر البربري على غيرهم من شعوب وبالأخص القبائل الجرمانية لا سيما بعد أن اعتنقت غالبية تلك القبائل المسيحية الأريوسية.

ثانياً: مع مشارف القرن الخامس الميلادي لم يعد "البرابرة" مجرد شعوب تعيش على حدود الإمبراطورية تهاجم حامياتها والحرب بينهما سجال مرة يغلبوا ومرات يُغلبون، أملاً في الحصول على ملجأ أو مأوى في ظل الحضارة الرومانية، بل أصبحوا يعيشون ويتعايشون داخل حدود الإمبراطورية؛ في قلب العاصمة روما وفي بلاط أباطرتها يتولون المناصب العليا في الجيش وأصبحوا مستشارين للأباطرة، وفي بعض الأحيان السادة الحقيقيين ومن بيديهم مقاليد الأمور. فحاولت أقلام كُتاب الكنيسة تضمين هذه الشعوب في تاريخ العقيدة بإيجاد أصول توراتية لهم لدمجهم في الهوية الرومانية المسيحية.

ثالثاً: عندما استطاعت القبائل الجرمانية أن تؤسس ممالكها في مقاطعات الإمبراطورية الرومانية المنهارة تبدلت مشاعر الخوف والارتياب إلى التسليم بالأمر الواقع لا سيما بعد أن نجحت البعثات التنصيرية الكاثوليكية في تحويل معظم هذه القبائل إلى التبعية للكنيسة اللاتينية، فأصبح مسمى "البرابرة" يُطلق على من تبقى من هذه الشعوب على وثنيته أو أريوسيته، لتظل "الأنا" أنا رومانية متحضرة ومتعالية و"الآخر" المختلف همجي وبربري ومتوحش.

رابعاً: يمكن القول إن الكتابات الكنسية لم تستطع الفكاك من أسر المفاهيم التي صكها القدماء "الوثنيون" للتعبير عن الآخر، وذلك بعد تمثلهم للهوية الرومانية وبعد تنقيتها من جذورها الوثنية ودمجها بالعقيدة المسيحية، ومن ثم ظل مفهوم البربرية يُستخدم للتعبير بالمضامين القديمة ذاتها عن الآخر غير الروماني حتى يتحول إلى المسيحية ويندمج في نسيج المجتمع الأوربي فيُستخدم المفهوم لوصف أغراب آخرون وشعوب "وثنية" حتى تعتنق هي الأخرى المسيحية.

الهوامش:

(١) Alexis Heraclides and Ada Dialla, *Eurocentrism, 'civilization' and the 'barbarians' Book Title: Humanitarian Intervention in the Long Nineteenth Century*, Manchester University Press, ٢٠١٥, p. ٣١. ويذهب الباحث سانتياجو سالبادوسكي أن وضع الآخر في القانون الغربي قد قام على مفارقة يظهر فيها هذا الآخر بوصفه لا زماني ومن ناحية أخرى تظل طبيعته كما هي عائق أمام تحضره بالرغم من عملية الاحتكاك الحضاري (التثاقف). Santiago H. Slabodsky, *Emmanuel Lévinas' Barbarisms: Adventures of Eastern Talmudic Counter-Narratives Heterodoxly Encountering the South*, PhD thesis University: University of Toro, ٢٠٠٩, p. ١.

(٢) كان ذلك المنطق الذي اعتمده منظرو الاستعمار في الماضي والذي غالباً ما يلجأ إليه اليوم دعاة التدخل الديمقراطي أو الإنساني منذ هيمنة التيار الليبرالي عالمياً مع نهايات القرن العشرين حتى وقتنا الحاضر. تزفيتان تودوروف، *الخوف من البرابرة: ما وراء صدام الحضارات*، ت/ جان ماجد جبور، أبو ظبي، ٢٠٠٩، ص ١٩.

(٣) فقد آمن الإغريق بمركزية الأرض وثباتها، وبالرغم من قدرتنا الآن ومعرفتنا الأوضح عن غروب الشمس باستخدام النظريات الكونية الحديثة، إلا أننا مازلنا نستخدم المفهوم القديم "مركزية الأرض" عندما نعبر عن "غروب الشمس"، أي أن اللغة، كسلوك مشترك، تظل كما هي تقليدية ندين باستخدامها للقدماء. انظر؛ Paul T. Keyser, "Greek; Geography of the Western Barbarians", in *The Barbarians of Ancient Europe Realities and Interactions*, ed. Larissa Bonfante, New York University Press, ٢٠١١, pp. ٣٧- ٧٠, p. ٣٨.

(٤) ساد اعتقاد راسخ أن المفاهيم الخاصة بالروح الجماعية مُجردة ومن ثم يصعب إخضاعها للمنهج العلمي حتى عام ١٨٥٩م، عندما أعلن لازاروس وستينيتال، المحرران في مجلة علم النفس العرقي واللغات، في أول عدد من المجلة مولد علم يدرس الروح القومية لدى عدد كبير من الناس يعيشون ويعملون معا ككيان واحد. ب. بورشنيف، علم النفس الاجتماعي والتاريخ، ت/ سعد رحمي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٨٦، ص ٩٦- ٩٧؛ سامر سيد قنديل، *الرؤى الأوربية عن الإسلام: من الفتوحات الإسلامية حتى الحروب الصليبية*، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٩، ص ٢٧- ٢٨.

(٥) يمكن مراجعة هذه الفكرة بشكل أكثر تفصيلاً عند الباحث أنتوني لامباينين الذي طبق فكرته على كتابات الرومان عن البرابرة وبالأخص الغاليين والجرمان من أواخر العصر الجمهوري في الدراسة التالية: Antoni Lampinen, "Migrating Motifs of Northern Barbarism: Depicting Gauls and Germans in Imperial Literature: Religious Rivalry and Ethnic Encounters in the Later Roman World", in *The Faces of the Other: Religious Rivalry and Ethnic Encounters in the Later Roman World*,

ed. Kahlos, Maijastina, Turnhout : Brepols ; ٢٠١٢, pp.١٩٩-٢٣٥, pp. .٢٠١- ٢٠٢

[٦] Jones, W. R., "The Image of the Barbarian in Medieval Europe", (*Comparative Studies in Society and History*, vol. ١٣, no. ٤ (١٩٧١), pp. ٤٠٢- ٤٢٥.

[٧] نُشرت الدراسة بالفرنسية بطبعتها الأولى عام ٢٠٠٨م، تحت عنوان: La Peur des barbares: Au-delà du choc des civilisations وترجمه إلى العربية د. جان ماجد جبور ونشرته هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث في ٢٠٠٩م.

[٨] Palmer, J., "Defining paganism in the Carolingian world", *Early Medieval Europe*, ١٥, ٤ (٢٠٠٧), pp. ٤٠٢- ٤٢٥.

[٩] في سياق الثقافة الأوربية لدينا في الإنجليزية الكلمة "culture" التي تعود إلى الكلمة اللاتينية culture والتي تعني حرث الأرض وزراعتها، وظل معناها مرتبط بأصل نشأتها حتى العصور الوسطى عندما استخدمت في فرنسا cultes بمعنى طقوس دينية، وفي عصر النهضة أحذت مدلولها الفني والأدبي. والكلمة الثانية هي "civilization" وهي آتيه أيضا من الكلمة اللاتينية "civis" والتي تعني مواطن التي تشير بالأساس إلى أولئك الذين يعيشون في المدن الرومانية أي المواطنين الرومان، وهما الكلمتان اللتان تم تعريب مفهوم الحضارة منهما. وتاريخياً يذهب فرناند بروديل Fernand Braudel إلى أن مصطلح "الحضارة" ظهر لأول مرة في عام ١٧٣٢م في سياق قانوني يتصل بالفقه الفرنسي ليعبر عن دعوى قضائية أو حكم يتم فيه تحويل المحاكمة الجنائية إلى إجراءات مدنية. وفي عام ١٧٥٢م، استخدمت آن روبرت جاك تورجوت Anne Robert Jacques Turgot "الحضارة" لوصف عملية التحضر. وبحلول عام ١٧٧٢م، حلت "الحضارة" و"الثقافة" محل "المدنية" في إنجلترا وكذلك في ألمانيا. وفي الثقافة العربية كان أول من استخدم المفهوم هو عبد الرحمن بن خلدون كمقابل لمفهوم البداوة، الذي يمكن أن يتداخل مع مفاهيم أخرى مثل "العجم" والأعاجم التي تدل ثقافياً على الغريب غير العربي في التراث والثقافة العربية. وفي العصر الحديث كان سلامة موسى قد قام بترجمة الكلمة "culture" إلى "ثقافة" لتحمل الكلمة العربية كل مدلولات اللفظ الأوربي المنشأ. ومع تطور عملية الترجمة والنقل من اللغات الأوربية إلى العربية قام بعض المترجمين العرب في مجال علم الاجتماع والأنثروبولوجيا إلى ترجمة "culture" إلى "حضارة". أما كلمة "civilization" فقد تمت ترجمتها إلى العربية إما إلى مدنية أو إلى حضارة. راجع؛ تودوروف، *الخوف من البرابرة*، ص ٣٤؛ نصر محمد عارف، *الحضارة – الثقافة – المدنية: دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم*، المعهد العالي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، ١٩٩٤، ص ١٩- ٢٠، ٢٧- ٢٨، ٤١؛ Maryanne Cline Horowitz (ed.), *New Dictionary of the History of Ideas*, Thomson Gale, ٢٠٠٥,vol. ١, p. ١٩٥.

[١٠] ميز علماء الأنساب والجغرافيون القدماء وكذلك المؤرخين بين الأمم المتحضرة وغير المتحضرة "البرابرة". وتعكس كتاباتهم صورة نمطية ومتسقة للبرابرة بوصفهم أدنى مرتبة من الناحية الثقافية والحضارية. راجع؛ Thomas S.

Burns, *Rome and the Barbarians, ١٠٠ BC. – ٤٠٠ AD.*, Johns Hopkins University Press, ٢٠٠٣, p. ٣.

وعن استخدام المفهوم في الثقافة الأوربية الحديثة وربطه بالأفكار والمضامين الازدرائية انظر؛ Michel Dubuisson, "Barbares et barbarie dans le monde gréco-romai: du concept au slogan", *L'Antiquité Classique* ٧٠ (٢٠٠١), pp. ١-١٦, p. ١.

[١١]) ومن غرائب الأشياء أن تُعرف اللجنة القائمة على مشروع موسوعة عالم البربرية؛ حقبة "أوربا البربرية" التي تمتد زهاء تسعة آلاف سنة بين حوالي ٨٠٠٠ قبل الميلاد و ١٠٠٠ م، لم تكن صدفة وإنما عن قصد لتكون نقطتا البداية والنهاية، فقد تغير المجتمع الأوروبي خلال تلك التسعة آلاف سنة بشكل كبير. فالبداية تتميز بتحرير أوربا من العصر الجليدي وتهيئة الظروف المناخية الحديثة، وتم تحديد تاريخ نهاية الحقبة البربرية حسب رأيهم من خلال انتشار المسيحية عبر شمال وشرق أوروبا وإنشاء العديد من الدول الأوربية التي لا تزال قائمة حتى وقتنا الحاضر. وهم بذلك يتبنون نفس آراء كُتاب العصور الوسطى الذين اعتبروا وصول المسيحية للجرمان أو لأي مجموعة صُنفت على أنها بربرية هو علامة على انتقال تلك الشعوب من البداوة والهمجية إلى التحضر والمدنية. انظر؛ Ancient Europe ٨٠٠٠ B.C.–A.D. ١٠٠٠: Encyclopedia of the Barbarian World, ed. Peter Bogucki and Pam J. Crabtree et al. New York, ٢٠٠٤, pp. ٣– ٤.

[١٢]) تزفيتان تودوروف، *الخوف من البرابرة*، ص ٢٢.

[١٣]) خلال العصور القديمة ميزت المجتمعات المدنية وحضا ا رت الأنهار نفسها عن الشعوب القبلية الرعوية التي لم تعرف نظاماً وعاشت على أطرافها ودأبت على مهاجمة حدودها. وعندما يشرع المنتصر "المتحضر" أو القوي في التعبير عن نفسه ويحس بهويته يجد نفسه يقف جنباً إلى جنب مع من هو أقل منه تحض ا رً أو على الأقل مختلف عنه في درجة الرقي ومستوى الحضارة أو هكذا يظن!. وهذا ما عبر عنه الكاتب الأكادي القديم عندما تحدث عن الشعوب القبلية المجاورة لهم بقوله: "إنهم لا يعلمون شيئاً عن القمح، ولم يخبروا المدينة قط. وفي السياق ذاته سجلت الحولية الصينية عن الهجوم الوحشي للهسيونج نو Hsiung Nu الذي عكر صفو السلام في المملكة الوسطى: "أن كل همهم تحقيق رغباتهم الشخصية" وأنهم "لا يعرفون شيئا عن الانضباط ورعاية حقوق الجار". وهو ما يمكن تطبيقه على الأوربي أو الأسيوي الذي عبر عن نفوره وريبته من ذلك البربري برسم صورة نمطية له مصاغة بألفاظ تتوافق مع تفوقه الحضاري سواء أكان هذا التفوق حقيقياً أم مزعوماً. Jones, "The Image of the Barbarian", p. ٣٧٦.

وثمة أمثلة كثيرة على هذه الصور النمطية لتصوير الآخر المختلف حتى وإن كان هذا الآخر متفوقا مثل علاقة الإغريق والرومان بالمصريين وعاداتهم وتقاليدهم، وإذا كانت كتاباتهم لم تصف المصريين بالبربرية صراحة، فإن هيرودوت قد أقام نوعاً من المقارنة بين المصريين والإسكيزيين على اعتبار أنهما أمتين مختلفتين عن الإغريق وساوى في هذه المقارنة بين الاسكيزيين والمصرين باعتبارهم "بربرة" أي عجم بالمعنى اللغوي للكلمة. وحملت إشارات الكتاب الإغريق عن عادات وتقاليد المصريين نوعاً من النقد المبطن في أحيان والظاهر في أحايين أخرى. وللوقوف على هذه الإشارات يمكن مراجعة وفي مواضع كثيرة؛ هرودوت يتحدث عن مصر، ترجمة/ محمد صقر خفاجة، تقديم/ أحمد بدوي، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٦؛ وكذلك الساتيرية "الهجائية" الخامسة عشر التي يتحدث فيها الشاعر الروماني جوفينال عن آلهة وعادات

وتقاليد المصريين القدماء Juvenal, *The Sixteen Satires*, trans. Peter Green, Penguin Books, ١٩٧٤. ويعبِّر أرسطو عن ذلك في كتاب السياسة قائلا: "هؤلاء الذين يعيشون في المناطق الباردة وفي أوربا كلهم روح "مملوئين بالروحانية"، لكنهم يفتقدون إلى الذكاء والمهارة؛ ولذا فهم أحرص ما يكونون على حريتهم، ولكن يعوزهم التنظيم السياسي، ويفشلون في حكم غيرهم. على الجانب الآخر فإن سكان آسيا أذكياء ومبتكرون، لكن ينقصهم الروح؛ ولذا فهم دائما في حالة خضوع وعبودية. إلا أن سلالة الهيللينيين الذين يقعون في منطقة وسط بينهم فهم بالمثل وسطيون في شخصيتهم؛ مفعمون بالروح والذكاء في آن واحد". انظر؛ Hay, D., *Europe: The Emergence of an Idea*, New York, ١٩٦٦, p. ٥.؛ ولم يكن عمل هيرودوت التاريخي ذائع الصيت سوى تخليد للصراع اليوناني الفارسي، أو بعبارة أخرى بين الشرق والغرب. وعلى الجانب الآخر اعتقد الفرس (ممثل الشرق في العصور القديمة) أنهم في مكانة أسمى من غيرهم وأطلقوا على أنفسهم arya والتي تعني الشعب النبيل، وانتقلت هذه الكلمة إلى السنسكريتية الهندية في الألفية الثانية قبل الميلاد، ومنها يأتي معنى اسم إيران الحديث "أرض النبلاء Arya-nam". Falk, A., *Franks and Saracens: Reality and Fantasy in the Crusades*, karnac books, London, ٢٠١٠, pp. ٣- ٤. وكذلك راجع؛ Jones, "The Image of the Barbarian", p. ٣٧٦.

١٤) يذهب الباحث إيدث هال Edith Hall إلى أن الإغريق حتى الحروب الفارسية لم تكن الفكرة الهللينية panhellenism عندهم أهم من هوايتهم الإثنية، وأن الحرب اليونانية الفارسية وشعور سكان البوليس اليوناني بالخطر الفارسي هو الذي وحدهم، وتحت هذه الظروف تبلورت فكرة الأمة الإغريقية وميزتها عن غيرها من الأمم. انظر؛ Edith Hall, *Inventing the Barbarian: Greek Self-Definition through Tragedy*, Oxford, ١٩٨٩, pp. ٨- ٩.

(١٥) Michel Dubuisson, "Barbares et barbarie", p. ٢.

(١٦) Encarnación Castro Páezm, "La géographie de la barbarie dans le Livre III de Strabon: une approche à partir de la terminologie", in *Les espaces du sauvage dans le monde antique: approches et définitions*: Institut des Sciences et Techniques de l'Antiquité, Besançon, ٢٠٠٤, pp. ٢٤٣-٢٥٤, p. ٢٤٤.

(١٧) يذهب ثوكيديدس إلى أن هوميرس لم يستخدم مصطلح "البرابرة" لأن الهيللينيون في رأيه لم يكن قد تحدد لهم وقتئذ هوية تفصلهم أو تفرق بينهم وبين آخر غريب عنهم. François Hartog, "Barbarians: From the Ancient to the New World", In Barbarism Revisited: New Perspectives on an Old Concept, ed. Maria Boletsi and Christian Moser, Brill Rodopi, Leien, ١٩٩٦, pp. ٣١- ٤٤, p. ٣٤.

[١٨] للمزيد من التفاصيل حول هذه المناقشات ومدى انطباق اللفظ وعلاقته بالبربرية التي ظهرت بوضوح بعد ذلك في كتابات الإغريق راجع؛ Edmond Lévy, "Naissance du concept de barbare", *Ktèma* ٩ (١٩٨٤), pp. ٥–١٤, pp. ٦–٧.

[١٩] Edmond Lévy, "Naissance du concept", p. ٥.

[٢٠] في حديث إيزيدور الإشبيلي عن الصفات البشرية للإسكيزيين نجد تشابهاً مع وصف تاكيتوس للجرمان. *The Etymologies of Isidore of Seville,* ed. & trans. by Stephen A. Barney W. J. Lewis, J. A. Beach, Oliver Berghof with the collaboration of Muriel Hall, Cambridge University Press, ٢٠٠٦, *IX.ii.٥٥–ii.٧١,* p. ١٩٥.

[٢١] ثمة أدلة من شواهد أدبية كثيرة ذكرها بينيامين إيزاك تدل على دنو الوضعية التي كان يمثلها البربري إذا ما تمت مقارنته بالإغريقي. راجع؛ Benjamin Isaac, "The Barbarian in Greek and Latin Literature", *Scripta Classica Israelica,* vol. XXXIII (٢٠١٤), pp. ١١٧–١٣٧, pp. ١١٧– ١٢٣; François Hartog, "Barbarians", p. ٣٤. ولإلقاء الضوء على جزيرة كاريا وعاصمتها هاليكارناسوس، وشعبها المكون من الكاريين والفارسيين واليونانيين، راجع الدراسة التالية؛ يسرا أشرف سعد، " جزيرة كاريا وهاليكارناسوس"، *مجلة كلية الآثار جامعة القاهرة*، عدد ٢٢ (٢٠١٩)، ص ٣– ٢٠.

[٢٢] من المعروف أن الفيلسوف الإغريقي الشهير أرسطو قد مارس تأثيراً واضحاً على الإسكندر الأكبر إذ أنه كان بمثابة المعلم والمربي له. وترجع أفكار "المواطن الكوني" إلى الفيلسوف الإغريقي ديوجنيس السينيوبي Diogenes of Sinope أو الكلبي أحد مؤسسي الفلسفة الكلبية (ت. ٣٢٣ ق.م)، ووفقاً لبعض الباحثين فإن الفلسفة الرواقية قد استوعبت هذه الأفكار وأصبحت فيما بعد جزءاً من تراثها الفلسفي. راجع؛ ديونسيوس اللائرتي، *حياة مشاهير الفلاسفة*، ت/ إمام عبد الفتاح إمام مراجعة/ محمد حمدي إبراهيم، المركز القومي للترجمة، المجلد الثاني، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ٢٩–٧٤. ولمزيد من التفاصيل حول مفهوم الكونية في الفكر اليوناني والروماني انظر؛

Hugh Harris, "The Greek Origins of the Idea of Cosmopolitanism", *International Journal of Ethics*, vol. ٣٨, no. ١ (Oct., ١٩٢٧), pp. ١– ١٠; A. A. Long, "The Concept of the Cosmopolitan in Greek & Roman Thought", *Daedalus* , vol. ١٣٧, no. ٣, (Summer, ٢٠٠٨), pp. ٥٠– ٥٨.

[٢٣] Benjamin Isaac, "The Barbarian in Greek and Latin Literature", p. ١٢٣.

[٢٤] Jones, "The Image of the Barbarian", p. ٣٧٩. وترتبط الرومنة Romanitas كما يذهب J. N. Adams باللغة اللاتينية ومدى قدرة الشخص على إتقان اللغة وفصاحة لسانه فيها وارتباط ذلك بالثقافة اللاتينية، ومن ثم العادات والتقاليد السائدة في محيط المواطنين الرومان. انظر؛ J. N. Adams, "Romanitas' and the Latin Language, *The Classical Quarterly*, New Series, vol. ٥٣, no. ١ (May, ٢٠٠٣), pp. ١٨٤–٢٠٥.

[٢٥] "**et ingenia Britannorum studiis Gallorum anteferre, ut qui modo linguam Romanam abnuebant, eloquentiam concupiscerent. inde etiam habitus nostril honor et frequens toga, paulatimque descensum ad delenimenta vitioruvn, porticus et balinea et convivioruni elegantiani. idque apud imperitos humanitas vocabatur, cum pars servitutis esset**. انظر؛ **Tcitus, Agricula, in Tacitus, *Dialogus, Agricula, Germaia*, The Loeb Classical Library, London & New York, ١٩٢٤, ٢٠–٢١, p. ٢٠٦.** نجد تاكيتوس يذكر على سبيل المثال أحوال البريطانيين قبل مجيء الرومان أنهم مثلهم مثل بقية البرابرة لا تجد في بلادهم أي مظهر من مظاهر الحضارة. **Tacitus, *Agricola and Germany*, trans. with an intro. and not. by Anthony R. Birley, Oxford University Press, ١٩٩٩, lib. ١١, p. ٩, lib. ٢١, p. ١٧.**

Morley, Neville. "They Called It "Civilization": The Dynamics of Cultural Change", in *The Roman Empire: Roots of Imperialism*, Pluto Press, ٢٠١٠, pp. ١٠٢–٢٧, p. ١٠٢.

[٢٦]) *تاكيتوس والشعوب الجرمانية*، ترجمها وعلق عليها/ إبراهيم على طرخان، دار الضياء للطباعة، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٤٠– ٤١. وعبر عن إعجابه بنُدرة الفجور في المجتمع الجرماني عندما امتدح قناعة الرجل الجرماني بامرأة واحدة بقوله: "والواقع أنه ليس في أخلاق الجرمان وتقاليدهم ما يستحق الإعجاب والاستحسان أكثر من هذه الناحية، فهم تقريباً فريدون بين البرابرة بحيث أن الواحد منهم يقنع بزوجة واحدة، والقليل النادر هو الذي يشذ عن هذه القاعدة"، وأرجع سبب ذلك إلى التزام النبلاء منهم بقواعد المجتمع التي تمنع النبيل من قبول هدايا زواج من أكثر من زوجة وليس للعفة بمعناها المجرد. تاكيتوس، ص ١٨.

[٢٧]) يُعرف عن غزوات القوط على إيطاليا غزوتان الأولى في عام ٤١٠م، والثانية الأكثر شهرة في عام ٤٦٧م، لكن يجب أن نشير هنا إلى أن أول غزوات آلاريك كانت في عام ٤٠٠م وكان الغزو الثاني في ٤٠٢م. **William Henry Fremantle (trans), *Life and Works of Rufinus*, NPNF٢–٠٣, ed. Philip Schaff, New York: Christian Literature Publishing Co., ١٨٩٢, p. ٦٢٢.** وواقع الأمر أن الإمبراطورية لم تسقط مرة واحدة، ولم يكن تاريخ الرابع من سبتمبر ٤٧٦ م إلا نهاية رحلة هبوط وانحدار للإمبراطورية في الغرب بدأت بواكير القرن الخامس الميلادي. ففي السنين الأواخر من القرن الرابع والأولى من القرن الخامس وبالتحديد بين عامي ٣٨٢– ٤١٠م عانت الإمبراطورية من أزمة سياسية خطيرة. لإلقاء الضوء على هذه الأحداث وخلفياتها يمكن مراجعة الدراسة التالية؛ **Guy Halsall, *Barbarian Migrations and the Roman West, ٣٧٦–٥٦٨*, Cambridge University Press, ٢٠٠٧, pp. ١٨٣– ١٨٤.**

[٢٨] يظهر تأثير الهويتين الرومانية والمسيحية في محاولات إحياء الإمبراطورية التي تمت في العصور الوسطى. انظر على سبيل المثال محاولة أوتو الثالث والبابا سيلفستر الثاني مع نهاية الألفية الأولى وبداية الثانية في الفصل الثالث من الدراسة التالية؛ سامر سيد قنديل، *المعرفة والسياسة في أوربا العصور الوسطى: الدور السياسي والثقافي للبابا سيلفستر الثاني*، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٢٣. أما البيزنطيون فقد كانت هويتهم مكونة في واقع الأمر من الدمج بين ثلاث هويات: رومانية ومسيحية ويونانية. واستُخدمت قصة الإمبراطورية المنقولة في المصادر البيزنطية في الفترة من القرن العاشر وحتى القرن الثاني عشر؛ لإثبات حق بيزنطة التاريخي في وراثة الإمبراطورية الرومانية في محاولة للدفاع عن رومانيتهم في مواجهة الغرب الأوربي. انظر؛ عبد العزيز رمضان، " البيزنطيون بين الهويتين اليونانية والرومانية"، *المجلة التاريخية المصرية*، المجلد ٤٣ (٢٠٠٥)، ص ٥٤– ٨٠، ص ٦٢.

[٢٩] ثمة أمثلة كثيرة على ذلك منها: عند انتصار الرومان على الجسر الميلفي **Milivian Bridge** في القرن الرابع الميلادي، أسند يوسيبيوس القيصري الانتصار الروماني إلى المسيح. وفي القرن الخامس ظهر ذلك فيما كتبه الإمبراطور جستنيان مقلداً الديباجات الرومانية عند الانتصارات بذكر الآلهة الرومانية، في توجيه الشكر "للسيد الرب يسوع المسيح". هذا إلى جانب حلول العذراء كحامية للمدن مثلما كانت الربات أثينا وروما في التقاليد الإغريقية والرومانية. راجع؛ **Olster, D., "Ideological Transformation and the Evolution of Imperial Presentation in the Wake of Islam's Victory", in *The Encounter of Eastern Christianity with Early Islam*, ed. Emmanouela Grypeou, Mark Swanson, and David Thomas, Leiden & Boston, ٢٠٠٦, pp. ٤٥– ٧٢, pp. ٤٧– ٤٨.**

[٣٠] ومؤلف إيزيدور عمل تصنيفي موسوعي يقع في عشرين كتاباً وهو أشبه بكتب إحصاء العلوم في الحضارة الإسلامية، عنى فيه مؤلفه بالبحث عن الأصل؛ فالفكرة المحورية عنده أن الإنسان يفهم كنة الشيء على نحو أفضل إذا ما فهم كنة الاسم الذي يطلق عليه. وظل هذا الكتاب المرجع الرئيسي لدارسي العصور الوسطي وانتشرت مخطوطاته في الأديرة الأوروبية حتى قاربت الألف مخطوطة. انظر؛ اسحق عبيد، *من آلارك إلى جستنيان: قراءة في حوليات العصور المظلمة*، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٦٩؛ ألآن دي ليبيرا، *فلسفة العصر الوسيط*، ترجمة/ مصطفى ماهر، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٣٠٦.

[٣١] ***The Etymologies I.xxix.٢–xxxii.٤***, p. ٥٥.

[٣٢] ***The Etymologies IX.i.١١–ii.٩***, p.١٩٢.

[٣٣] تودوروف، *الخوف من البرابرة*، ص ٢٤.

[٣٤] ***The Etymologies XIV.iii.٤٢–iv.٦***, p. ٢٨٩.

[٣٥] ***The Etymologies IX.ii.٨٩–ii.١٠٠*** p. ١٩٧.

[٣٦] ***The Etymologies IX.ii.٨٩–ii.١٠٠***, p.١٩٧.

[٣٧] **Biblia Sacra Juxta Vulgatam Clementinam, Plurimis Consultis Editionibus Diligenter Praeparata, Michaele Tuueedale, London, ٢٠٠٥,**

.٢-١ ,*Psalmi ١١٣* ويُلاحظ هنا أن الترجمة العربية لا تتطابق مع الفلوجاتا في تعريب اللفظ "بربري"، واستعاضت عنه بمسمى "أعجمي" التي تدل على اختلاف اللسان، وفي بعض الترجمات الأخرى تم استخدام تعبير "غريب اللسان" بدلاً من "البربري". انظر؛ الكتاب المقدس، الترجمة العربية المشتركة، دار الكتاب المقدس بالشرق الأوسط، بيروت، ١٩٩٦، *مزمور ١١٤* . وفي الترجمة العربية لنسخة الفان دَيك نجد النص كالتالي: "عند خروج إسرائيل من مصر، وبيت يعقوب من شعب أعجم". الكتاب المقدس، ترجمة سِميث – فِان دِيك مع ملاحظات داربي، د. م، د.ت، *مز ١١٤* . وتكرر نفس اللفظ أعجمية في سفر باروخ: "فَإِنَّهُ جَلَبَ عَلَيْهِمْ أُمَّةً مِنْ بَعِيدٍ أُمَّةً وَقِحَةً أَعْجَمِيَّةَ اللِّسَانِ". راجع؛ الترجمة العربية المشتركة، *باروخ ٤: ١٥* .

[٣٨] .٢٣-٢٢ :٢ ***Biblia Sacra Juxta Vulgatam, Machabæorum II*** والنص في الترجمة على موقع الأنبا تكلا كالتالي: "... حَتَّى إِنَّهُمْ مَعَ قِلَّتِهِمْ تَسَلَّطُوا عَلَى الْبِلاَدِ بِجُمْلَتِهَا وَطَرَدُوا جَمَاهِيرَ الأَعَاجِمِ". وفي هذا السفر يقدم كاتبه تلخيصاً لخمس كتب لمؤرخ يهودي قيرواني عاش في الإسكندرية اسمه ياسون القيرواني، ويركز فيه على انتصارات يهوذا المكابي واستعادة الهيكل. ويعد أيضا من أهم المصادر التي تسجل تاريخ الطائفة اليهودية في عصر البطالمة والسلوقيين. **https://st-takla.org/pub_Deuterocanon/Deuterocanon-Apocrypha_El-Asfar_El-Kanoneya_El-Tanya__٩-Second-of-Maccabees_.html**

[٣٩] .٣ -٢ :١٥ ***Biblia Sacra Juxta Vulgatam, Machabæorum II***. والنص بالعربية لا يذكر الكلمة "البربرية" وإنما يستعيض عنها بمقابل هو "القسوة"، " قال له اليهود الذين شايعوه اضطرارا لا تأخذ القوم بهذه القسوة والخشونة، بل ارع حرمة يوم قد أكرمه وقدسه الرقيب على كل شيء".

https://sttakla.org/pub_Deuterocanon/Deuterocanon-Apocrypha_El-Asfar_El-Kanoneya_El-Tanya__٩-Second-of-Maccabees_.html

[٤٠] .١٤ ,***Epistola B. Pauli Apostoli ad Romanos***؛ *رسالة بولس إلى أهل رومية*، ١٤.

[٤١] *رسالة بولس إلى أهل رومية*، ١١، ١٢.

[٤٢]– *أعمال الرسل*، ٢١، ٢٢. وللمزيد من التفاصيل عن جدل الهوية بين المسيحيين الأول يمكن مراجعة هذه الدراسة؛ Harland, Ph., ***Dynamics of Identity in the World of Early Christians: Associations, Judeans and Cultural Minorities***, New York & London, ٢٠٠٩.

[٤٣] الكتاب المقدس، *الرسالة إلى أهل كولوسي*، ٣، ٩– ١١.

[٤٤] يوسف عطا الله سلامة، *تفسير رسالة بولس إلى أهل كولوسي*، الإسكندرية، ٢٠٠٢، ص ١٤٥. وفي أحد التفسيرات نجد وصف لهم بأنهم: " ...كانوا أشد البرابرة قسوة ووحشية فكان مجرد ذكر اسمه يثير الرعب في النفوس". **https://st-takla.org/bible/commentary/ar/nt/church-encyclopedia/colossians/chapter-٠٣.html**

[٤٥]) Comm. On ١ Cor., ١:١١:٤٤-٤٥. ويعلق أوريجانوس على هذا النص قائلاً: "الإنسان الروحي قادر أن يحكم في كل شيء، سواء كان يونانيًا أو بربريًا، حكيمًا أو غبيًا. ولا يمكن أن يحكم عليه أحد بسبب عمق فهمه". نقلاً عن: تادرس يعقوب ملطي، *من تفسير وتأملات الآباء الأولين، رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس*، طبعة الأنبا رويس، القاهرة، ٢٠٠١، ص ٨٢.

[٤٦]) *Ad Corinthios I*, ١٤: ١١- ١٢. وفي بعض الترجمات العربية الأخرى: "فإن كنت لا أعرف قوة اللغة، أكون عند المتكلم أعجميًا، والمتكلم أعجميًا عندي". وبنفس النبرة المحايدة أو الممتدحة لأخلاق البرابرة ورد المصطلح "البرابرة" للإشارة إلى أهل مالطة في رحلة بولس الأولى إلى روما؛ "**Et cum evasissemus, tunc cognovimus quia Melita insula vocabatur Barbari vero præstabant non modicam humanitatem nobis**." وَلَمَّا نَجَوْا وَجَدُوا أَنَّ الْجَزِيرَةَ تُدْعَى مَلِيطَةَ، فَقَدَّمَ أَهْلُهَا الْبَرَابِرَةُ لَنَا إِحْسَانًا غَيْرَ الْمُعْتَادِ...". ٢-١ :٢٨, *Actus Apostolorum*؛ أعمال الرسل، ٢٧، ٢٨.

[٤٧]) في الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس التي قام بها القديس جيروم والمعروفة بـ "الفولجاتا "، تم استخدام **gentilis** جنبًا إلى جنب مع العشائر لترجمة الكلمات اليونانية والعبرية ذات المعاني المتشابهة عندما أشار النص إلى الشعوب غير الإسرائيلية. وقد اتبع المترجمون الإنجليز الأوائل هذا النهج وقاموا باستخدام نفس الكلمة للإشارة إلى الأمم غير الإسرائيلية (وبشكل أساسي باستخدام كلمة "أمة **nation** " لترجمة **goyim** / **goy** في سياقات أخرى). ويعتبر أول استخدام للمصطلح في الفولجاتا ما ورد في سفر طوبيا وهو أحد أسفار الكتاب المقدس لدى المسيحيين، وهو جزء من الأسفار القانونية الثانية. وتبدو الإشارة الأوضح في سفر يهوديت حيث التمييز الواضح بين إله بني إسرائيل وآلهة الأمميين (الوثنيين) راجع؛ **Biblia Sacra Juxta Vulgatam Clementinam, ed. Michaele Tuueedale, London, ٢٠٠٥.**

[٤٨]) إحدى القبائل الإيرانية الأصل التي استقرت في المنطقة الجنوبية الغربية من سكيزيا ونهر الفولغا، وعلى حدود شواطئ البحر الأسود وبحر قزوين والقوقاز، وشكلت مع الأسكيزيين والبيسيين **Bessians** المجموعات الرئيسية لبرابرة سكيزيا. راجع؛ *The Etymologies IX.ii.٨٩-ii.* ١٠٠ ١٩٧

[٤٩] **Eusebius, *Life of Constantine*, intro., trans. and commentary by Averil Cameron & Stuart G. Hall, Oxford, ١٩٩٩, pp. ١٥٥- ١٥٦.** واعتمد الباحث كذلك على الترجمة العربية في حالة اتفاق الاقتباس أو النقل مع الترجمة الإنجليزية، ورجع إلى الإنجليزية مباشرة في حالات عدم الاتفاق أو الشك في بعض العبارات؛ يوسابيوس القيصري، *حياة قسطنطين العظيم*، تعريب/ القمص مرقس داود، مكتبة المحبة، القاهرة، د. ت، ص ١٩٠- ١٩١.

[٥٠]) يوسابيوس القيصري، *حياة قسطنطين*، ف. ٢٥، ص ٢٩.

[٥١]) **Ambrose of Milan, *Political Letters and Speeches*, translated with an introduction and notes by J. H. W. G. Liebeschuetz with the assistance of Carole Hill, Liverpool University Press, ٢٠١٠, *EP*. ٢, p. ٨٣.**

[٥٢]) يعتقد عدد من الباحثين المحدثين أن الوثنية لم تنل نصيباً من اهتمام المسيحيين مثلما نالت الهرطقة خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين، وهذا الأمر ينطبق على أمبروز، غير أن المسألة الجرمانية كانت قضية وجودية وبالتالي لا جدال في أنها كانت محل اهتمام. للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع يمكن مراجعة الدراسة التالية: **Michele Renee Salzman**, " **The Evidence for the Conversion of the Roman Empire to Christianity in Book ١٦ of the "Theodosian Code"**, ***Historia: Zeitschrift für Alte Geschichte***, **Bd. ٤٢, H. ٣ (٣rd Qtr., ١٩٩٣), pp. ٣٦٢– ٣٧٨.**

[٥٣] (**Ethan Gannaway and Robert Grant (eds.)**, ***Ambrose of Milan and Community Formation in Late Antiquity***, **Cambridge Scholars Publishing, ٢٠٢١, p. ٤.**

[٥٤]) يعتبر أهم كاتب من عصر الآباء الأول، واحتل جيروم مكانة خاصة في تاريخ الكنيسة الغربية بنقله للكتاب المقدس إلى اللاتينية وأصبحت ترجمته التي سميت "الفولجاتا **Vulgata**"؛ التي تعتبر النص المعتمد للكتاب المقدس للكنيسة اللاتينية والمرجع الأساسي لكل دارسي الكتاب المقدس حتى عصر الطباعة في أواخر العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة. وجاءت التسمية من المصطلح اللاتيني ***versio Vulgata*** ومعناه " النسخة الشعبية"، او "الأكثر انتشاراً". وقد استخدمت هذه التسمية من جانب آباء الكنيسة وخاصة جيروم للتفرقة بينها وبين الترجمة السبعينية **Septuagint**، وكلتاهما تمثلان النسخة اللاتينية القديمة المسماه ***vetus Latina***. وأكمل جيروم ترجمته للكتاب المقدس في عام ٣٨٣م، وانتشرت أسفار العهد القديم التي ترجمها انتشاراً كبيراً في الغرب الأوربي، وغالباً مع تعليقات جيروم عليها، حتى وصلت إنجلترا الأنجلوسكسونية في القرن السادس الميلادي. انظر؛ ***NCE***. **vol. ١٤, p. ٥٩١.** ؛ **Hieronymus**, ***Epistolae***, **١٢٩**, ***CSEL***. **٥٦. P. ١٦٩**؛ *رسائل هيرونيمُس*، أعدها وقدم لها ووضع حواشيها/ سعد الله سميح جحا، دار المشرق، بيروت، ٢٠٠٨، جـ ١، ص ٣٧.

[٥٥] (***Letter LXXV***. **To Theodora, in** ***The Principal Works of St. Jerome***, **trans. W. H. Fremantle, NPNF. ٦, ٢nd Series, New York & Oxford & London, ١٨٩٢, p. ٢٨٠.** والنص في ترجمة سميث– فان دايك المعربة كالتالي " "لَيْسَ يَهُودِيٌّ وَلاَ يُونَانِيٌّ. لَيْسَ عَبْدٌ وَلاَ حُرٌّ. لَيْسَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، لأَنَّكُمْ جَمِيعًا وَاحِدٌ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ.". الكتاب المقدس، *غلاطية*، ٣: ٢٨.

[٥٦] **Andrew Cain**, ***The letters of Jerome: Asceticism, Biblical Exegesis, and the Construction of Christian Authority in Late Antiquity***, **Oxford University Press, ٢٠٠٩, p. ٢٢– ٢٣.**

[٥٧] (***Letter VII***. **To Chromatius, Jovinus, and Eusebius**, ***NPNF***, **p. ٥٣.**

[٥٨]) انظر؛ *الرسالة إلى باماكيوس* ٦٦، ص ٤١٤– ٤١٥؛ وكذلك النسخة الإنجليزية ***Letter LXVI***. **To Pammachius**, ***NPNF***, **pp. ٢٥٤– ٢٥٥.**

[٥٩]) ***Letter CXXIII***. **To Ageruchia**, ***PNF***, **p.** ٤٠١. تجدر الإشارة إلى أن ناقل الرسائل إلى العربية قد أهمل ترجمة هذه الفقرة كما هي في الأصل واستعاض عنها بالقول: "سأقول لكي أمراً قد يبدو مستهجناً، غير انه واقعي بشهادة كثيرين. منذ سنوات عديدة كنت في روما أعمل كأمين سر للبابا داماسوس أساعده في الرد على الرسائل المجمعية..." . *الرسالة إلى أجيروكيا* ١٢٣ ، ج٢، ص ٦٨٩– ٦٩٠.

[٦٠]) لقد تم قبول القوط في الإمبراطورية واستقروا داخل حدودها، وبعد أدريانول ووفقاً لشروط المعاهدات والاتفاقات اللاحقة في ٣٨٢ و٣٨٣م تم الاستعانة بالقوط في الجيش الإمبراطوري فرادى كمرتزقة وجماعات كفرق كاملة ضمن فرق البرابرة في الجيش الروماني. انظر؛ **Guy Halsall**, ***Barbarian Migrations***, **pp.** ١٨٣– ١٨٤.

[٦١]) **Prolegomena to Jerome**, **in** ***the Complete Works of St. Jerome***, **p.** ٩.

[٦٢]) يُعرف عن غزوات القوط على إيطاليا غزوتان الأولى في عام ٤١٠م، والثانية الأكثر شهرة في عام ٤٦٧م، لكن يجب أن نشير هنا إلى أن أول غزوات آلاريك كانت في عام ٤٠٠م وكان الغزو الثاني في ٤٠٢م. **William Henry Fremantle** (**trans.**), **Life and Works of Rufinus**, ***NPNF*** ٢–٠٣, **ed. Philip Schaff**, **New York**: **Christian Literature Publishing Co.**, ١٨٩٢, **p.** ٦٢٢.

[٦٣]) ***Prolegomena to Jerome***, **p.**٧.

[٦٤]) الرسالة إلى هيليودورس ٦٠، *رسائل هيرونيموس*، ص ٣٨٣– ٣٨٤.

[٦٥]) *الرسالة إلى هيليودورس ٦٠* ، ص ٣٨٤.

[٦٦]) *الرسالة إلى أوقيانوس ٧٧* ، ص ٥٠٧.

[٦٧]) تودوروف، *الخوف من البرابرة*، ص ٢٥. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الصفات ستظل عنواناً للبربرية حتى القرن عصر غزوات الفيكنج لأوربا بداية من نهايات القرن الثامن وطوال القرن التاسع والعاشر الميلاديين حتى استقرارهم في نورماندیا في الربع الأول من القرن الأخير، وذلك بالرغم من الحكمة التي تحتويها ملاحمهم البطولية. وللدليل على ذلك يمكن مراجعة الدراسة التالية؛ طارق منصور محمد، " القيم والأخلاق عند الفيكنج في ضوء ملحمة هفمال"، *مجلة وج*، ع ٢، (٢٠٠٩)، ص ١٣٢– ١٤٣، ص ١٣٢– ١٣٣.

[٦٨]) الرسالة إلى هيليودورس ٦٠، ص ٣٨٥ وكذلك النسخة الإنجليزية, **Letter LX**. **To Heliodorus**, ***NPNF***, **p.** ٢٤٠.

[٦٩]) حول تأثير المعركة في الرؤية للبرابرة راجع هذه الدراسة الحديثة؛ **Massimiliano Vitiello**, "**The "Fear" of the Barbarians and the Fifth-Century Western Chroniclers**", ***Memoirs of the American Academy in Rome***, **vol.** ٦٦ (٢٠٢١), **pp.** ١١٥–١٥٠, **pp.** ١١٧– ١١٩. وعن المعركة وتأثيراتها ونتائجها في العلاقة بين الرومان والجرمان بشكل عام راجع؛ رأفت عبد الحميد، *الإمبراطورية البيزنطية: العقيدة والسياسة*، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٠، ص ١٢٢– ١٣٧.

[٧٠]) هو كاتب وجندي روماني عاش في الفترة ما بين عامي ٣٣٠ و ٤٠٠ ميلادية. لم يتم تحديد تاريخ ميلاد أميانوس ماركللينوس بدقة، ويعتقد أنه ولد في الفترة ما بين عام ٣٢٥ و ٣٣٥ م. كما أن تاريخ وفاته غير معروف بالضبط، ولكن يتوقع أنه توفي في الفترة ما بين عامي ٣٩٥ و ٤٠٠ م. وعلى الرغم من عدم وجود معلومات دقيقة حول حياته الشخصية، فإن كتاباته تعتبر مصدرًا هامًا لفهم الفترة التاريخية التي عاش فيها والتي تمتد من القرن الرابع الميلادي حتى عام ٣٧٨. وقد كتب تاريخًا شاملاً للإمبراطورية الرومانية منذ عهد الإمبراطور نيرو وحتى عام ٣٧٨، وكان العمل الأصلي يتألف من إحدى وثلاثين كتاباً فُقد منهم الثلاثة عشر كتباً الأوليين وتغطي الثمانية عشر كتاباً الباقين تاريخ الفترة من سنة ٣٥٣ أو ٣٥٤ حتى عام ٣٧٨م. ويعد مؤلفه أحد المصادر الأساسية للتأريخ لخلفاء قسطنطين وكذلك فهو المؤرخ الرئيس وشاهد العيان على أحداث معركة أدريانوبل الشهيرة التي راح ضحيتها الإمبراطور فالنز في سنة ٣٧٨م. للمزيد عن حياته وطروف إنتاج مؤلفه والطروف المحيطة به انظر التمهيد الذي يسبق الترجمة الإنجليزية لعمله؛ **Ammianus Marcellinus**, ***The Later Roman Empire (A.D. ٣٥٤- ٣٧٨)***, **Selected and translated by Walter Hamilton with an Introduction and Notes by Andrew Wallace-Hadrill, intro. Penguin Books, ١٩٨٦, pp. ١٤- ٣٥.**

[٧١]) في ذلك الوقت كان الإمبراطور مشغولاً بحربه مع الفرس في الجانب الشرقي من الإمبراطورية وكان ذلك يتطلب بقاءه في الشرق. **Ammianus Marcellinus, *Later Roman Empire*, book ١٦p. ٨١.**

[٧٢]) **Ammianus Marcellinus, *Later Roman Empire*, book ١٦, p. ٩٣.**

[٧٣]) **Ammianus Marcellinus, *Later Roman Empire*, book ١٦, pp. ٩٣- ٩٤.**

[٧٤]) إسحق عبيد، *الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية مع دراسة في "مدينة الله"*، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢، ص ١٤٠؛ **Canning, J., *A History of Medieval Political Thought ٣٠٠- ١٤٥٠*, London& New York, ٢٠٠٣, pp. ٤١- ٤٢.**

[٧٥]) **The Confessions of Saint Augustine, trans. And ann. J.G. Pilkington, M.A, *NPNF١-٠١.*, p. ٨٦.**

[٧٦]) ***The Confessions of Saint Augustine*, *NPNF١-٠١.*, p. ٨٧.**

٧٧) أوغسطين، *مدينة الله*، نقله إلى العربية/ يوحنا الحلو، دار المشرق، ط ٢، بيروت، ٢٠٠٦، ج١، ك ٣، ص ١٦٠.

[٧٨]) أوغسطين، *مدينة الله*، ج١، ك ٦، ص ١٧.

[٧٩]) **Augustine, *The City of God against the Pagans*, ed. and trans. R. W. Dyson, Cambridge University Press, ٢٠١٣, Book ٢, p. ٥.** في بعض الحالات تكون الترجمة الإنجليزية للنص اللاتيني أوضح وأدق من الترجمة العربية التي تكون أحياناً مجازية. انظر النص في الترجمة العربية؛ أوغسطين، *مدينة الله*، ج١، ك ٢، ص ١١.

[٨٠]) أوغسطين، *مدينة الله*، ج١، ك ١، ص ٤٥. وفي موضع آخر يفخر بموقف رومانية مسيحية ثارت لعفتها مركزاً على رومانيتها بقوله "... إن هذه الرومانية الأبية الحريصة على المجد تخشى أن تعيش عرضة للشك...". أوغسطين، *مدينة الله*، ج١، ك ١، ص ٣٩.

[٨١]) **Schaff, Philip, *The Confessions and Letters of St. Augustine with a Sketch of his Life and Work*, *NPNF١-٠١*., s. ١, vol. ١, p. ١٧ intro.**

[٨٢]) تنتسب الدوناتية أو الدونائية إلى دوناتيوس المعروف بالكبير، وهي حركة دينية مسيحية ظهرت في مقاطعة أفريقيا الرومانيّة وازدهرت في القرنين الرابع والخامس الميلاديين. وللمزيد عن الحركة وتأثيراتها في مجتمع شمال إفريقيا وموقف أوغسطين منها انظر؛ **Shaw B.D., *Sacred Violence. African Christians and Sectarian Hatred in the Age of Augustine*, Cambridge University Press, ٢٠١١.**

[٨٣]) **Letter CXI., *NPNF١-٠١*., s. ١, vol. ١, pp. ٩٤٧.**

[٨٤]) **Letter XLVI, *NPNF١-٠١*., s. ١, vol. ١, pp. ٦٦٢- ٦٦٣.** تؤرخ هذه الرسالة بعام ٣٩٥ وهي رسالة بعثها أحد ملاك الأراضي في شمال إفريقيا مختلف على شخصيته اسمه بوبليكولا **Publicola** إلى أوغسطين ب٢٧ سؤالاً، وتختص هذه الأسئلة بموضوعات دينية أشبه بطلب الفتوى. ومن الواضح أن البرابرة المقصودون في هذه الرسائل هم بربر شمال إفريقيا. ومن المعلوم أن هناك فرق بين كلمة بربر وبرابرة لكن ابن خلدون يقدم تشابهات بين البرابرة والبربر من حيث صفات التوحش والوحشية. ويظهر أن العرب في ترجماتهم لكلمة البربرية غالبا ما كانوا يستخدمون لفظ "البربر" للإشارة إلى نفس المعنى المقصود بالكلمة، وفي بعض المواضع لا يترجمونها بالأساس ويهملون الكلمة ويستعيضون عنها بكلمة الأجناس، وفي موضع آخر ينقلون "برابرة سكيثيا" إلى "القوط" وهو ما يتضح من خلال الترجمة العربية لعمل أورسيوس "التواريخ ضد الوثنيين". راجع: **Danuta Shanzer, "Who was Publicola?", *Revue des etudes juives*, tome ١٧١, (janvier-juin ٢٠١٢), pp. ٢٧- ٦٠.**؛ أورسيوس، *تاريخ العالم: الترجمة العربية القديمة*، تحقيق وتقديم/ عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٢، ص ٦٢، ٦٤، ٩٣؛ سامر سيد قنديل، *الرؤى الأوربية عن الإسلام*، ص ٩٠.

[٨٥]) أسقف أسباني ولد في براجا بجليقية **Galicia** حوالي عام ٣٧٥م وتوفي بعد سنة ٤١٨م. له العديد من المؤلفات، وكان قد ارتحل إلى شمال أفريقيا ليأخذ العلم عن القديس أوغسطين، الذي أسند له مهمة مؤلفه بعد سقوط روما في يد القوط عام ٤١٠م. وقد ورد ذكره في المصادر العربية باسم هروشيوش أو هروسيوس، أو أهروشيوش عند بن خلدون. راجع الترجمة العربية للكتاب الرابع من عمله؛ أوروسيوس، *تاريخ العالم*، ص ٥٤- ٥٥.

[٨٦]) أطلق الباحث الألماني هانز فيرنر جويتس **Hans-Werner Goetz** على عمل أورسيوس "**theology of history**" "**Geschichtstheologie**" لاهوت التاريخ بوصفه واضع لتقليد جديد في الكتابة التاريخية، فالباحث يتتبع العلاقة بين عمل أورسيوس وتقاليد الكتابة التاريخية الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) والكتابة التاريخية المسيحية. ومن ناحية أخرى يذهب جويتس إلى أن أورسيوس هو مؤسس للاتجاه الاعتذاري للتاريخ

بمحاولته التأكيد على أن الوضع الراهن آنذاك بسقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب على يد ألاريك في ٤١٠م أسعد حالاً من الوضع في عالم ما قبل المسيحية. وقد ترك ما أسسه أورسيوس من تقاليد في الكتابة التاريخية المسيحية في الكتاب اللاحقين عليه طوال العصور الوسطى. راجع؛ **Hans-Werner Goetz**, ***Die Geschichtstheologie des Orosius***, **Darmstadt**, ١٩٨٠.

[٨٧]) بدأ أورسيوس مؤلفه بالبرولوج الذي يكشف فيه عن سبب تأليف العمل رداً على أستاذه القديس أوغسطين قائلاً: "لقد طلبت مني الرد على الثرثرة الفارغة وانحراف أولئك الذين يطلق عليهم، أعداء (الأجانب) "مدينة الله"، أولئك "الوثنيين" (**pagani**) لأنهم يأتون من الريف (**ex pagis**) وضواحي المناطق الريفية، أو الذين بسبب حكمتهم في الأمور الأرضية أطلق عليهم "الأمميين". **Paulus Orosius**, ***The Seven Books of History Against the Pagans***, (**Fathers of the Church Patristic Series**), **trans**. **Roy J**. **Deferrari**, **The Catholic University of America**, **Washington D C**, ١٩٦٤, **Praef**., ٩-١٠: ٩

[٨٨]) **Orosius**, ***The Seven Books of History***, **p**. ١١٩.

[٨٩]) يحكي عن ملك مصري بحسب الأساطير اليونانية اسمه بوزيرس **Busiris** كان ابناً لإله البحار الإغريقي بوسيدون، والذي وصفه أورسيوس كان بربرياً لأنه كان يشرب من دم الضحايا من الأجانب الذين يدخلون مصر والذين يذبحهم على مذبح زيوس. لقد فعل ذلك بناءً على نصيحة العراف القبرصي فراسيوس، أملاً في انتهاء المجاعة التي حاقت بأرضه آنذاك. **Orosius**, ***The Seven Books of History***, **p**. ٥٢.

[٩٠]) **Orosius**, ***The Seven Books of History***, **p**.١٨١.

[٩١]) **Jones**, **W**. **R**., "**The Image of the Barbarian**", **p**. ٤٢١.

[٩٢]) هو قائد قوطي عبر بقوة كبيرة نهر الدانوب إلى إيطاليا عام ٤٠٥، استطاع ستيلكو أن يهزمه ويعدمه في ٢٣ اغسطس ٤٠٦م بعد أن جمع قوة من قبائل الهون والآلمان المتحالفة. انظر تفاصيل هذه الأحداث عند أورسيوس؛ ***The Seven Books of History***, **pp**. ٣٤٩- ٣٥٠. وكذلك؛ **Guy Halsall**, ***Barbarian Migrations***, **pp**. ٢٠٦- ٢٠٧.

[٩٣]) **Orosius**, ***The Seven Books of History***, **pp**. ٣٤٩- ٣٥٠.

[٩٤]) لقد مثل الهراطقة دور الأعداء داخل التقاليد والجماعة المسيحية بتحديهم للتعاليم الرسمية للكنيسة. ومنذ القرن الخامس الميلادي حثت الكنيسة السلطة الرومانية "المسيحية"، على إصدار قوانين أكثر صرامة في التعامل مع البدع والهرطقات. ومن ثم امتد التهذيب والعقاب، كجزء من الفكر الكنسي، ليشمل أعداء العقيدة. وبرغم حرص القديس أوغسطين على أهمية حرية الإرادة في اختيار العقيدة التي يؤمن بها الإنسان؛ إلا أنه ذهب للتأكيد على أن الخوف من العقاب يمنع الرغبات الشريرة من التسلل إلى الفكر الإنساني. انظر؛ سامر سيد قنديل، *الرؤى الأوربية عن الإسلام*، ص ٥٣- ٥٥.

[٩٥] **Orosius**, ***The Seven Books of History***, **pp**. ٣٣٦- ٣٣٧.

[٩٦]) ذكر بروسبر أسماء أربعة من الأساقفة الكاثوليك هم: أركاديوس **Arcadius**، وباسكايوس **Paschasius**، وبروبوس **Probus**، يوطيخوس **Eutychian** ، وذكر أنه نفاهم أولاً ثم أعادهم ليتعرضوا للتعذيب الشديد وأخيرا: "نالوا المجد باستشهادهم" بحسب تعبيره. راجع؛ **Prosper's chronicle: A critical edition and translation of the edition of ٤٤٥, PhD-thesis, University of Ottawa, ٢٠١٤, ٤٣٧, p. ٧٧.**

[٩٧] (**Salvian, *The Governance of God*, in The Writings of Salvian, the Presbyter, (Fathers of the Church Patristic Series), trans. Jeremiah O' Sullivan, The Catholic University of America, Washington D C, ٢٠٠٨, p. ١٣٣.**

[٩٨] (**Salvian, *The Governance of God*, p. ٦٧.**

[٩٩] (**Salvian, *The Governance of God*, p. ١١٠.**

[١٠٠] (**Salvian, *The Governance of God*, p. ١١١.**

[١٠١] (**Salvian, *The Governance of God*, pp. ١١٢- ١١٣.**

[١٠٢] (**Salvian, *The Governance of God*, p. ١١٣.**

[١٠٣] (**Salvian, *The Governance of God*, p. ١١٤.**

[١٠٤]) نجد كذلك نفس المعاني في عمل بوسيديوس "حياة القديس أوغسطين" **Sancti Augustini Vita Scripta A Possidio Episcopo, ed. Rev. inrto. And notes by Herbert T. Weiskotten. PhD Thesis Faculty of Princeton University, ١٩١٩, ١٠- ١٥, .p. ١١٨.**

[١٠٥] (**Orosius, *The Seven Books of History*, p. ٣٥٨; Massimiliano Vitiello, "The "Fear" of the Barbarians", pp. ١١٦- ١١٧.**

[١٠٦] (**Jones, "The Image of the Barbarian", p. ٣٨٣.**

[١٠٧](***Etymologies, VIII.ix.٢٥-xi.٤, p. ١٨٣.***-

[١٠٨]) وطبقاً لإيزيدور فإن مصطلح ***Pagani*** جاء من باجوس **Pagus** الإغريقية، وهي المنطقة التي شهدت بدايات الممارسات الوثنية كعبادة الأصنام. ويتضح أن أغلب مصادر الغرب الأوربي في العصور الوسطى التي تناولت قضية الوثنية لم تلق بالاً بهذه التفرقة التي وضعها إيزيدور، ودرجت على استخدام مسمى ***pagani*** في الإشارة إلى الوثنيين. ***Etymologies, VIII.ix.٢٥-xi.٤,*** p. ١٨٣.

[١٠٩]) يمكن مراجعة الدراسة التالية التي ركزت على آليات التنصير بين الشعوب "البربرية" وبخاصة العرب قبل الإسلام؛ **Fisher, G., *Between Empires: Arabs, Romans and Sasanians in Late Antiquity*, Oxford University Press, ٢٠١١, pp. ٣٥- ٣٩.**

[١١٠](يوستينوس، *الحوار مع تريفون*، ص ٢٩١.

(١١١) "**Sed et vos, qui sacrum baptisma desideratis accipere et gratiam spiritus promereri prius debetis ex lege purgari, prius debetis audito verbo Dei vitia genuine resecare et mores barbaros ferosque componere, ut mansuetudine et humilitate suscepta possitis etiam gratiam sancti Spiritus capere.**", **text and English translation quoted in: Gunnar af Hällström, "More Than Initiation? Baptism According to Origen of Alexandria", in *Ablution, Initiation, and Baptism Waschungen, Initiation und Taufe: Late Antiquity, Early Judaism, and Early Christianity*, ed. David Hellholm, Tor Vegge et. al. University of Oslo, Norway, ٢٠١٦, pp. ٩٨٩– ١٠٠٧, p. ١٠٠٤.**

(١١٢) يوسابيوس القيصري، *تاريخ الكنيسة*، ص ١٥، ١: ٢.

(١١٣) لُقب بذهبي الفم لفصاحته (خريسوستوم)، ولد في انطاكية حوالي سنة ٣٤٧م لأب وثني من ضباط الجيش وأم مسيحية. درس القانون على يد العالم الوثني ليبانيوس **Libanius** كذلك درس اللاهوت، ثم اعتزل الناس فترة وان لم تكن طويلة انصرف فيها إلى الزهد والنسك ثم عاد الى أنطاكية حيث رُسم كاهناً هناك. عين بطركاً للقسطنطينية في عصر الامبراطور ثيودوسيوس الأول سنة ٣٩٨م رغم عزوفه ورغم معارضته الشديدة لشغلها. وكان يعد من رجال الاصلاح الأخلاقي ولاقت خطبه وعظاته جمهوراً كبيراً، وقد قدسته الكنائس الشرقية والغربية. انظر؛ دونالد نيكول، *معجم التراجم البيزنطية*، ت/ حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٥٩– ٦٠.

(١١٤) نقلاً عن: تادروس يعقوب ملطي، *تفسير كورنثوس ١* ، ص ١٠٦.

(١١٥) تتسم وجهة النظر الرومانية الشرقية (البيزنطية) عن البرابرة وبالتالي مفهوم "البربرية" بمميزات خاصة طبقاً لظروف الشرق ولغته وثقافته، ومن ثم يصعب الألمام بوجهتي النظر المسيحية الشرقية والغربية في عمل واحد، لذا يجب التنويه أن هذه الدراسة معنية بمفهوم البربرية في التراث والكتابات الكنسية اللاتينية فقط. ولمزيد من التفاصيل حول سفارة بريسكوس يمكن مراجعة الدراسة التالية: وفاء مختار غزالي، "سفارة بريسكوس، من الإمبراطور البيزنطي ثيودوسيوس الثاني إلى آتيلا ملك الهون عام ٤٤٨م: دراسة تاريخية نقدية"، *مجلة وقائع تاريخية* ع ١٩ (٢٠١٣)، ص ٢٠٧ – ٢٨١.

(١١٦) **Jones, " The Image of the Barbarian", p. ٣٨٢.**

(١١٧) **Prudentius, Contra orationem Symmachi II, Peristephanon Liber, Tituli Historiarum, Epilogus, trans. H.J. Thomson, Loeb Classical Library ٣٩٨, Harvard University Press, ١٩٥٣, ٨١٥– ٨٢٠, p. ٧٠; The Poems of Prudentius, trans. M. Clement Eagan, (Fathers of the Church**

Patristic Series), **The Catholic University of America**, **Washington D C**, **vol. I**, ٢nd **pr**. ١٩٨١, **vol. II**, ٨٠٥– ٨٢٥, **p**. ١٦٠.

(١١٨ ونفس الوصف ***The Poems of Prudentius, vol. I, Hymns*** ١١٥– ١٢٠, **p**. ٨٩. نجده في ***Hymns I***, ٦٥– ٧٠, **p**. ٢٧٧; ***Poems II***, ٢٧٥– ٢٨٠, **p**. ١٤٩.

(١١٩ **The Poems of Prudentius**, **vol. I**, ***Hymns*** ٥٥– ٦٥, **p**. ١٧.

(١٢٠ **The Poems of Prudentius**, **vol. II**, ***Against Symmachus***, ٥– ١٠, **p**. ١١٣.

(١٢١ **The Poems of Prudentius**, **vol. II**, ٢٩٠– ٢٩٥, **p**. ١٥٠.

(١٢٢ **EP**. ١٦٤, **To ? Betranion of Tomi**, **in** ***The Goths in the Fourth Century***, **ed. and trans. Peter Heather and John Matthews**, **Liverpool University Press**, ١٩٩١, **p**. ١١٦.

(١٢٣ **De lupis hoc est vitulos creare…**

Namque mansueto pecori coire

Bestias pulsa feritate suades,

Qui feras mentes hominum polito

Imbuis ore.

Orbis in muta regione per te

Barbari discunt resonare Christum

Corde Romano, **placidamque casti**

Vivere pacem.

Poem ١٧, ***The Poems of St. Paulinus of Nola***, **trans. and annot. P. G. Walsh**, **New York**, ١٩٧٥, **pp**. ١١١– ١١٢.

(١٢٤ كان السكسون آخر الشعوب الجرمانية في القارة الأوروبية التي تحولت إلى المسيحية (النصف الثاني من القرن الثامن)، بينما تحولت الشعوب الاسكندنافية في القرن العاشر، تم تنصير الإنجليز في القرن السابع الميلادي. راجع؛ **Gregory of Tour**, ***History of the Franks, translated with Notes by Ernest Brehaut,*** **New York**: **Columbia University Press**, ١٩٦٩, **pp**. ٤٠– ٤١***;*** **Sullivan**, **R. E.**, "**The Carolingian Missionary and the Pagan**", ***Speculum***, **vol**. ٢٨, **no**. ٤ (١٩٥٣), **pp**. ٧٠٥– ٧٠٦; **Phelan**, ***The Formation of Christian Europe: The Carolingians, Baptism, and the Imperium Christianum,*** **New York**: **Oxford University Press**, ٢٠١٤, ***pp. ٤٨– ٨٠; Mayr–Harting,*** **H.**, "**Charlemagne**, **The Saxons**, **and the Imperial**

Coronation of ٨٠٠", *English Historical Review*, ١١١ (١٩٩٦), pp. ١١١٣–١١٣٣; *Christianization and the Rise of Christian monarchy: Scandinavia, Central Europe and Rus .٩٠٠–١٢٠٠*, ed. Nora Berend, Cambridge University press ٢٠٠٧. زينب عبد المجيد، *الإنجليز والحروب الصليبية*، دار عين، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٢٦؛ بدران عبد الونيس محمد، وعادل عبد الحافظ حمزة، "اعتناق البرجنديين المسيحية في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي"، *مجلة الدراسات التاريخية والحضارية المصرية*، كلية الآداب جامعة بني سويف، مج ٢, ع ٣، (٢٠١٧)، ٥٨– ٧٤، ص ٧٠.

(١٢٥)– بالنسبة للإغريق ومن بعدهم الرومان كانت كلمة أوروبا **Europa** ترتبط بالأسطورة أكثر من ارتباطها بالعلم. فالأسطورة اليونانية تحكي عن "أوربا" أنها ابنة آجنور **Agenor** ملك صور الفينيقي، تلك الفتاة التي هام بها زيوس عشقاً؛ وحتى يمتلكها تحول إلى ثور جميل قدم نفسه لها وهي تمرح مع حواريها على الشاطئ. انجذبت الفتايات اللاتي صحبنها إلى الجاموس متطيات ظهورها، فنزل الثور (زيوس) إلى الماء وحمل الفتاة الجميلة متجها بها غربا إلى كريت. أنجبت أوربا من زيوس عدداً كبيراً من الأبناء ثم تزوجت من ملك كريت بعد ذلك. ***The Etymologies***, **XIV.iii.٤٢–iv.٦, p. ٢٨٩; Hay, *Europe*, p.١.**

١٢٦) النص كما جاء في الكتاب المقدس: "... فقال: " ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته". وقال " مبارك الرب إله سام. وليكن كنعان عبدا لهم. ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام، وليكن كنعان عبدا لهم". *تكوين* ٩– ١٠. وعن العلاقة بين العبودية ولون البشرة في النصوص اليهودية والمسيحية والإسلامية المبكرة، يمكن مراجعة الدراسة التالية؛ **Goldenberg, D. M., *The Curse of Ham: Race and Slavery in Early Judaism, Christianity and Islam*, Princeton University Press, ٢٠٠٣.**

١٢٧) ذكر يوسيفوس أن يافث **Japheth** كان له سبعة أبناء سكنوا جبال طوروس وأمانوس من آسيا إلى نهر تانيس **Tanais**، وفي أوروبا حتى جاديريا **Gaderia** وأعطوا اسمهم للأمم حتى عصره. وأن الإغريق يطلقون على بعض هذه الشعوب أسماء وهي في الأصل أسماء أبناء يافث بعد أن قاموا بهلينتها، وأن أعداداً كثيرة من البشر وجدت بسبب كثرة نسل يافث. انظر؛ **Josephus, *Jewish Antiquates*, trans. H. St. J. Thackerray, The Loeb Classical Library, London & New York, ١٩٣٠, vol. IV, Books I – V, pp. ٥٩– ٦١, ٦٣.**

١٢٨) أسند أوروسيوس كل قارة من من قارات العالم القديم لإبن من أبناء نوح؛ فآسيا لسام، وأوربا ليافث، أما إفريقيا كانت من نصيب حام. أوروسيوس، *تاريخ العالم*، ص ٥٨.

١٢٩) Hay, *Europe*, pp. ١١– ١٥. ويعرف أيضا بإيوكريوس من ليون **Eucherius of Lyons** تولى أسقفية ليون من ٤٣٢ وحتى ٤٤١م، ومات في عام ٤٤٩م. ألف عددا من الأعمال اللاهوتية وله عدد من الرسائل المتبادلة بين أساقفة غالة في القرن الخامس الميلادي. انظر؛ ***The New Catholic Encyclopedia*, ed. Berard L. Marthaler et. al., The Catholic University of America, ٢٠٠٣, ٢ ed. Vol. ٥, p. ٤٣٨.**

(١٣٠- **Etymologies**, **IX.ii.١٠–ii.٣٧**, **p. ١٩٣.**

(١٣١ ***Etymologies,*** **VI.١٨–vi.٤٣, p. ١٦٣.**

(١٣٢ تشير الكاثوليكية هنا إلى اتباع الكنيسة الجامعة، وهي في هذه الحالة كنيسة روما. فقد عرف إيزيدور الإشبيلي مسمى كاثوليكي ***Catholicus*** : بأنه عالمي أو جامع. والاسم في اليونانية الذي يدل عليه هو **Katholikon** ***Etymologies***, **VII.xii.٢٩–xiv.١٠, p. ١٧٢.** وتجدر الإشارة إلى أن المعنى الذي كان يقصد به الكنيسة الرسولية الجامعة في الشرق والغرب، أما بعد مجمع خلقدونية٤٥١م فقد حمل مدلولاً طائفياً يقصد به كنيسة روما بالتحديد، ولذا يجب التنويه أن استخدام الدراسة للمصطلح حتى القرن الخامس يختلف عنه فيما بعد.

(١٣٣ **Bede**, ***On Genesis***, **trans. intro. not. Kalvin B. Kendall, Liverpool University Press, ٢٠٠٨, p. ٢١٢.**

(١٣٤- يقسم ميشيل فوكو نظرية السلطة إلى نمطين: "النظرية التاريخية" الرومانية للسيادة التي اعتمدت على الخطاب القانوني الفلسفي، و"النظرية المضادة للتاريخ" التي استندت إلى علم الأعراق (الجينالوجيا) في المطالبة بالسلطة. راجع؛ ميشيل فوكو، *يجب الدفاع عن المجتمع: دروس أُلقيت في "الكوليج دي فرانس" سنة ١٩٧٦* ، ترجمة وتقديم وتعليق/ الزاوي بغورة، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٢٠– ٢١، ٥٨– ٦٣.

(١٣٥) وفي خطابه ليهودي من جنوة عبر عن ذلك بقوله إن الخضوع للقانون يعد دلالة على المدنية **civilitas**. انظر؛ **Jones, "The Image of the Barbarian", p. ٣٨٥.**

(١٣٦ ***The Etymologies IX.ii.٨٩–ii.١٠٠,*** **p. ١٩٧.**

(١٣٧ **Goffrat, W.,** ***Narrators of Barbarian History: Jordanes, Gregory of Tours, Bede and Paul the Deacon*****, Princeton, ١٩٨٨, p. ٢٠.**

(١٣٨ مدح ستيفانوس (ت. ٦٩٨م) الأصول النبيلة للبيت الملكي اللمباردي، وكذلك ملكهم أريبرت **Aripert** (٦٥٢– ٦٥٣م) ووصفه بالكاثوليكي التقي الذي استأصل الهرطقة الأريوسية ونشر الإيمان المسيحي بين شعبه. وإذا كان الفرنجة قد هاجروا من آسيا إلى أوروبا، فاللمبارديون من أصول أوربية خالصة. وكان بولس الشماس لديه معرفة كبيرة بتاريخ الهجرات الجرمانية، ورأى أن ألمانيا كانت موطن كل هذه الشعوب **gentes**. وأن اللمبارديين جاءوا من جزيرة أطلق عليها كاندينافيا **candinavia** (سكندينافيا)، حتى أنه ذكر أن سبب هجرتهم كثرة أعدادهم. انظر؛ **The** ***Origo gentis Longbardorum*****, in Paul the Deacon,** ***History of the Lombards*****, trans. William Duddly Foulke, ed. intro. Eward Peters, University of Pennsylvania Press, ١٩٧٤, Appendix. pp. ٣١٥– ٣٢١; Leyser, K.,** ***Communications and Power in Medieval Europe: The Carolingian and Ottonian Centuries*****, ed. Timothy Reuter, London & Rio Grande, ١٩٩٤, p. ٣.**

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الأجنبية:

- Ambrose of Milan, *Political Letters and Speeches*, translated with an introduction and notes by J. H. W. G. Liebeschuetz with the assistance of Carole Hill, Liverpool University Press, ٢٠١٠.
- Ammianus Marcellinus, *The Later Roman Empire (A.D. 354- 378)*, Selected and translated by Walter Hamilton with an Introduction and Notes by Andrew Wallace-Hadrill, intro. Penguin Books, ١٩٨٦.
- Augustine, *The City of God Against the Pagans*, ed. and trans. R. W. Dyson, Cambridge University Press, ٢٠١٣.
- Bede, *On Genesis*, trans. intro. not. Kalvin B. Kendall, Liverpool University Press, ٢٠٠٨.
- Biblia Sacra Juxta Vulgatam Clementinam, ed. Michaele Tuueedale, London, ٢٠٠٥.
- Possidio, *Sancti Augustini Vita Scripta A Possidio Episcopo*, ed. Rev. inrto. And notes by Herbert T. Weiskotten. PhD Thesis Faculty of Princeton University, ١٩١٩
- Eusebius, *Life of Constantine*, intro., trans. and commentary by Averil Cameron & Stuart G. Hall, Oxford, ١٩٩٩.

  وكذلك الترجمة العربية؛ *حياة قسطنطين العظيم*، ت./ القمص مرقس داود، مكتبة المحبة، القاهرة، د. ت.
- Gregory of Tour, *History of the Franks, translated with Notes by Ernest Brehaut*, New York: Columbia University Press, ١٩٦٩.
- Josephus, *Jewish Antiquates*, trans. H. St. J. Thackerray, The Loeb Classical Library, London & New York, ١٩٣٠.
- Juvenal, *The Sixteen Satires*, trans. Peter Green, Penguin Books, ١٩٧٤.
- Life and Works of Rufinus, trans. William Henry Fremantle, *NPNF* ٢-٠٣, ed. Philip Schaff, New York: Christian Literature Publishing Co., ١٨٩٢.
- Paulus Orosius, *The Seven Books of History Against the Pagans*, (Fathers of the Church Patristic Series), trans. Roy J. Deferrari, The Catholic University of America, Washington D C, ١٩٦٤.
- Prosper's chronicle: *A critical edition and translation of the edition of 44٥*, PhD-thesis, University of Ottawa, ٢٠١٤.
- Prudentius, Contra orationem Symmachi II, Peristephanon Liber, Tituli Historiarum, Epilogus, trans. H.J. Thomson, Loeb Classical Library ٣٩٨, Harvard University Press, ١٩٥٣.

And the English translation: The Poems of Prudentius, trans. M. Clement Eagan, (Fathers of the Church Patristic Series), The Catholic University of America, Washington D C, ٢vols., ٢nd pr. ١٩٨١.

- Salvian, *The Governance of God*, in The Writings of Salvian, the Presbyter, (Fathers of the Church Patristic Series), trans. Jeremiah O' Sullivan, The Catholic University of America, Washington D C, ٢٠٠٨.
- Tacitus, *Dialogus, Agricula, Germaia*, The Loeb Classical Library, London & New York, ١٩٢٤.
- Tacitus, *Agricola and Germany*, trans. with an intro. and not. by Anthony R. Birley, Oxford University Press, ١٩٩٩.
- The Confessions of Saint Augustine, trans. And ann. J.G. Pilkington, M.A, ***NPNF***١-٠١., in *The Confessions and Letters of St. Augustine, with a Sketch of his Life and Work*, ed. Schaff, Philip (١٨١٩-١٨٩٣).
- *The Etymologies of Isidore of Seville*, ed. & trans. by Stephen A. Barney W. J. Lewis, J. A. Beach, Oliver Berghof with the collaboration of Muriel Hall, Cambridge University Press, ٢٠٠٦.
- *The Goths in the Fourth Century*, ed. and trans. Peter Heather and John Matthews, Liverpool University Press, ١٩٩١.
- The *Origo gentis Longbardorum*, in Paul the Deacon, *History of the Lombards*, trans. William Duddly Foulke, ed. intro. Eward Peters, University of Pennsylvania Press, ١٩٧٤.
- *The Poems of St. Paulinus of Nola*, trans. and annot. P. G. Walsh, New York, ١٩٧٥.
- *The Principal Works of St. Jerome*, trans. W. H. Fremantle, ***NPNF***. ٦, ٢nd Series, New York & Oxford & London, ١٨٩٢.

ثانياً: المصادر العربية والمُعربة:

- أورسيوس، *تاريخ العالم: الترجمة العربية القديمة*، تحقيق وتقديم/ عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٢.
- الكتاب المقدس، الترجمة العربية المشتركة، دار الكتاب المقدس بالشرق الأوسط، بيروت، ١٩٩٦.
- أوغسطين، *مدينة الله*، نقله إلى العربية/ يوحنا الحلو، دار المشرق، ط ٢، جزءان، بيروت، ٢٠٠٦.

- *تاكيتوس والشعوب الجرمانية*، ترجمها وعلق عليها/ إبراهيم على طرخان، دار الضياء للطباعة، القاهرة، ١٩٥٩.
- ديونسيوس اللائرتي، *حياة مشاهير الفلاسفة*، ت/ إمام عبد الفتاح إمام مراجعة/ محمد حمدي إبراهيم، المركز القومي للترجمة، المجلد الثاني، القاهرة، ٢٠٠٨.
- *رسائل هيرونيمُس*، أعدها وقدم لها ووضع حواشيها/ سعد الله سميح جحا، جزءان، دار المشرق، بيروت، ٢٠٠٨.
- *يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة*، ت/ مرقس داود، مكتبة المحبة، القاهرة، ١٩٩٩.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

- A. A. Long, "The Concept of the Cosmopolitan in Greek & Roman Thought", ***Daedalus***, vol. ١٣٧, no. ٣, (Summer, ٢٠٠٨), pp. ٥٠- ٥٨.
- Alexis Heraclides and Ada Dialla, *Eurocentrism, 'civilization' and the 'barbarians' Book Title: Humanitarian Intervention in the Long Nineteenth Century*, Manchester University Press, ٢٠١٥.
- Andrew Cain, *The letters of Jerome: Asceticism, Biblical Exegesis, and the Construction*
- *of Christian Authority in Late Antiquity*, Oxford University Press, ٢٠٠٩.
- Antoni Lampinen, "Migrating Motifs of Northern Barbarism: Depicting Gauls and Germans in Imperial Literature: Religious Rivalry and Ethnic Encounters in the Later Roman World*", in The Faces of the Other: Religious Rivalry and Ethnic Encounters in the Later Roman World*, ed. Kahlos, Maijastina, Turnhout : Brepols ; ٢٠١٢, pp.١٩٩- ٢٣٥.
- Benjamin Isaac, "The Barbarian in Greek and Latin Literature", ***Scripta Classica Israelica***, vol. xxxiii (٢٠١٤), pp. ١١٧-١٣٧, pp. ١١٧-١٢٣.
- Canning, J., *A History of Medieval Political Thought 300- 1450*, London& New York, ٢٠٠٣.
- Edith Hall, *Inventing the Barbarian: Greek Self-Definition through Tragedy*, Oxford, ١٩٨٩.
- Edmond Lévy, "Naissance du concept de barbare", ***Ktèma***, ٩ (١٩٨٤), pp. ٥-١٤.
- Encarnación Castro Páezm, "La géographie de la barbarie dans le Livre III de Strabon: une approche à partir de la terminologie", in *Les*

espaces du sauvage dans le monde antique: approches et définitions: Institut des Sciences et Techniques de l'Antiquité, Besançon, ٢٠٠٤, pp. ٢٤٣- ٢٥٤.

- Ethan Gannaway and Robert Grant (eds.), *Ambrose of Milan and Community Formation in Late Antiquity*, Cambridge Scholars Publishing, ٢٠٢١.
- Falk, A., *Franks and Saracens: Reality and Fantasy in the Crusades*, karnac books, London, ٢٠١٠.
- Fisher, G., *Between Empires: Arabs, Romans and Sasanians in Late Antiquity*, Oxford University Press, ٢٠١١.
- François Hartog, "Barbarians: From the Ancient to the New World", In Barbarism Revisited: New Perspectives on an Old Concept, ed. Maria Boletsi and Christian Moser, Brill Rodopi, Leien, ١٩٩٦, pp. ٣١- ٤٤.
- Goffrat, W., *Narrators of Barbarian History: Jordanes, Gregory of Tours, Bede and Paul the Deacon*, Princeton, ١٩٨٨.
- Goldenberg, D. M., *The Curse of Ham: Race and Slavery in Early Judaism, Christianity and Islam*, Princeton University Press, ٢٠٠٣.
- Gunnar af Hällström, "More Than Initiation? Baptism According to Origen of Alexandria", in *Ablution, Initiation, and Baptism Waschungen, Initiation und Taufe: Late Antiquity, Early Judaism, and Early Christianity*, ed. David Hellholm, Tor Vegge et. al. University of Oslo, Norway, ٢٠١٦, pp. ٩٨٩- ١٠٠٧.
- Guy Halsall, *Barbarian Migrations and the Roman West, 376–568*, Cambridge University Press, ٢٠٠٧.
- Harland, Ph., *Dynamics of Identity in the World of Early Christians: Associations, Judeans and Cultural Minorities*, New York & London, ٢٠٠٩.
- Hans-Werner Goetz, *Die Geschichtstheologie des Orosius*, Darmstadt, ١٩٨٠.
- Hay, D., *Europe: The Emergence of an Idea*, New York, ١٩٦٦.
- Hugh Harris, "The Greek Origins of the Idea of Cosmopolitanism", ***International Journal of Ethics***, vol. ٣٨, no. ١ (Oct., ١٩٢٧), pp. ١- ١٠.
- J. N. Adams, "Romanitas' and the Latin Language, ***The Classical Quarterly***, New Series, Vol. ٥٣, No. ١ (May, ٢٠٠٣), pp. ١٨٤- ٢٠٥.

- Jones, W. R., "The Image of the Barbarian in Medieval Europe", Comparative Studies in Society and History, vol. ١٣, no. ٤ (١٩٧١), pp. ٤٠٢- ٤٢٥.
- Leyser, K., *Communications and Power in Medieval Europe: The Carolingian and Ottonian Centuries*, ed. Timothy Reuter, London & Rio Grande, ١٩٩٤.
- Maryanne Cline Horowitz (ed.), *New Dictionary of the History of Ideas*, Thomson Gale, vol. ١, ٢٠٠٥.
- Massimiliano Vitiello, "The "Fear" of the Barbarians and the Fifth-Century Western Chroniclers", ***Memoirs of the American Academy in Rome***, vol. ٦٦ (٢٠٢١), pp. ١١٥-١٥٠.
- Mayr-Harting, H., "Charlemagne, The Saxons, and the Imperial Coronation of ٨٠٠", English Historical Review, ١١١ (١٩٩٦), pp. ١١١٣- ١١٣٣.
- Michel Dubuisson, "Barbares et barbarie dans le monde gréco-romai: du concept au slogan", L'Antiquité Classique ٧٠ (٢٠٠١), pp. ١-١٦.
- Michele Renee Salzman, "The Evidence for the Conversion of the Roman Empire to Christianity in Book ١٦ of the "Theodosian Code", ***Historia: Zeitschrift für Alte Geschichte***, Bd. ٤٢, H. ٣ (٣rd Qtr., ١٩٩٣), pp. ٣٦٢- ٣٧٨.
- Morley, Neville. "They Called It "Civilization": The Dynamics of Cultural Change", in *The Roman Empire: Roots of Imperialism*, Pluto Press, ٢٠١٠, pp. ١٠٢– ٢٧.
- Nora Berend (ed.), *Christianization and the Rise of Christian monarchy: Scandinavia, Central Europe and Rus .900-1200*, ed., Cambridge University press ٢٠٠٧.
- Olster, D., "Ideological Transformation and the Evolution of Imperial Presentation in the Wake of Islam's Victory", in *The Encounter of Eastern Christianity with Early Islam*, ed. Emmanouela Grypeou, Mark Swanson, and David Thomas, Leiden & Boston, ٢٠٠٦, pp. ٤٥-٧٢.
- Palmer, J., "Defining paganism in the Carolingian world", ***Early Medieval Europe***, ١٥, ٤ (٢٠٠٧), pp. ٤٠٢- ٤٢٥.
- Paul T. Keyser, "Greek; Geography of the Western Barbarians", in *The Barbarians of Ancient Europe Realities and Interactions*, ed. Larissa Bonfante, New York University Press, ٢٠١١, pp. ٣٧- ٧٠.

- Peter Bogucki and Pam J. Crabtree et al (eds.), *Ancient Europe 8000 B.C.–A.D. 1000: Encyclopedia of the Barbarian World*, ed.. New York, ٢٠٠٤.
- Phelan, *The Formation of Christian Europe: The Carolingians, Baptism, and the Imperium Christianum*, New York: Oxford University Press, ٢٠١٤.
- Shaw B. D., *Sacred Violence. African Christians and Sectarian Hatred in the Age of Augustine*, Cambridge University Press, ٢٠١١.
- Santiago H. Slabodsky, *Emmanuel Lévinas' Barbarisms: Adventures of Eastern Talmudic Counter-Narratives Heterodoxly Encountering the South*, PhD thesis University: University of Toro, ٢٠٠٩.
- Sullivan, R. E., "The Carolingian Missionary and the Pagan", Speculum, vol. ٢٨, no. ٤ (١٩٥٣), pp. ٧٠٥- ٧٠٦.
- *The New Catholic Encyclopedia*, ed. Berard L. Marthaler et. al., ٢ ed. Vol. ٥The Catholic University of America, ٢٠٠٣.
- Thomas S. Burns, *Rome and the Barbarians, 100 BC. – 400 AD.*, Johns Hopkins University Press, ٢٠٠٣.
- William Henry Fremantle (trans.), *Life and Works of Rufinus, NPNF 2-٠٣*, ed. Philip Schaff, New York: Christian Literature Publishing Co., ١٨٩٢.

رابعاً: المراجع العربية والمُعربة:

- إسحق عبيد، *الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية مع دراسة في "مدينة الله"*، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢.
- ـــــــــ، *من آلارك إلى جستنيان: قراءة في حوليات العصور المظلمة*، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧.
- ألآن دي ليبيرا، *فلسفة العصر الوسيط*، ترجمة/ مصطفى ماهر، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٩.
- ب. بورشنيف، *علم النفس الاجتماعي والتاريخ*، ت/ سعد رحمي، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ١٩٨٦.
- بدران عبد الونيس محمد، وعادل عبد الحافظ حمزة، "اعتناق البرجنديين المسيحية في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي"، ***مجلة الدراسات التاريخية والحضارية المصرية***، كلية الآداب جامعة بني سويف، مج ٢, ع ٣، (٢٠١٧)، ٥٨- ٧٤.

- تادرس يعقوب ملطي، *من تفسير وتأملات الآباء الأولين، رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس*، طبعة الأنبا رويس، القاهرة، ٢٠٠١.
- تزفيتان تودوروف، *الخوف من البرابرة: ما وراء صدام الحضارات*، ت/ جان ماجد جبور، أبو ظبي، ٢٠٠٩.
- دونالد نيكول، *معجم التراجم البيزنطية*، ت/ حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣.
- رأفت عبد الحميد، *الإمبراطورية البيزنطية: العقيدة والسياسة*، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٠.
- زينب عبد المجيد، *الإنجليز والحروب الصليبية*، دار عين، القاهرة، ١٩٩٦.
- سامر سيد قنديل، *الرؤى الأوربية عن الإسلام: من الفتوحات الإسلامية حتى الحروب الصليبية*، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٩.
- طارق منصور محمد، "القيم والأخلاق عند الفيكنج في ضوء ملحمة هفمال"، ***مجلة وج***، ع ٢، (٢٠٠٩)، ص ١٣٢- ١٤٣.
- عبد العزيز رمضان، "البيزنطيون بين الهويتين اليونانية والرومانية"، ***المجلة التاريخية المصرية***، المجلد ٤٣ (٢٠٠٥)، ص ٥٤- ٨٠.
- ميشيل فوكو، *يجب الدفاع عن المجتمع: دروس أُلقيت في "الكوليج دي فرانس" سنة ١٩٧٦*، ترجمة وتقديم وتعليق/ الزاوي بغورة، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٣.
- نصر محمد عارف، *الحضارة – الثقافة – المدنية: دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم*، المعهد العالي للفكر الإسلامي، فيرجينيا، ١٩٩٤.
- وفاء مختار غزالي، "سفارة بريسكوس من الإمبراطور البيزنطي ثيودوسيوس الثاني إلى آتيلا ملك الهون عام ٤٤٨م: دراسة تاريخية نقدية"، ***مجلة وقائع تاريخية*** ع ١٩ (٢٠١٣)، ص ٢٠٧ – ٢٨١.
- يسرا أشرف سعد، "جزيرة كاريا وهاليكارناسوس"، ***مجلة كلية الآثار جامعة القاهرة***، عدد ٢٢ (٢٠١٩)، ص ٣- ٢٠.
- يوسف عطا الله سلامة، *تفسير رسالة بولس إلى أهل كولوسي*، الإسكندرية، ٢٠٠٢.

مواقع الشبكة العالمية (الانترنت):

- موقع سانت تكلا:

https://st-takla.org/pub_Deuterocanon/Deuterocanon-Apocrypha_El-Asfar_El-Kanoneya_El-Tanya__٩-Second-of-Maccabees_.html
https://sttakla.org/pub_Deuterocanon/Deuterocanon-Apocrypha_El-Asfar_El-Kanoneya_El-Tanya__٩-Second-of-Maccabees_.html
https://st-takla.org/bible/commentary/ar/nt/church-encyclopedia/colossians/chapter-٠٣.html